

العلامة علي بن سليمان الدمنتي وإسهاماته في الدراسات الحديثة

للاستاذ عمر لشكر *

التعريف بالشيخ علي بن سليمان

الفصل الأول : مولده

أجمعت المصادر المعرفة (1) بأبي الحسن علي بن سليمان البجمعي الدمنتي على أن ولادته كانت سنة أربعة وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة بقرية «أيت بوجمعة» المجاورة لبلدة دمنة.

ودمنات (2) بلدة تقع عند قدم جبل الأطلس الكبير على بعد مائة وعشرين كيلومترا جنوب شرق مراكش في ارتفاع أقل بقليل من ألف متر، وهي هضبة ثرية تشرف على وادي تساوت غطيت سفوحها بالزيتاين والكروم..

وقد أعطاهما موقعها الجغرافي في القديم أهمية خاصة، فوجودها على الطريق التي تربط مراكش بمكناس وفاس من جهة، وبدرعة وتافيلالت من جهة أخرى، وخصوبة تربتها، كل هذه المعطيات جعلتها مركزا تجاريا مهما أغرى الجاليات اليهودية بالنزوح إليها أفواجا — للمضاربة في أسواقها، ومشاركة أهلها خيراتها — وبسبب هذه البيوتات اليهودية تدخلت في القرون الماضية بعض الدول الأجنبية في شؤون المنطقة لغاية تحسين وضع اليهود المضطهدين بها، الأمر الذي حمل السلطان الحسن الأول (3) على إصدار قرار بتاريخ 17 شعبان 1304 هـ يقضي ببناء ملاح منفصل في المدينة، وهو الذي لا يزال موجودا إلى الآن.

* أشرف على هذا البحث الدكتور عمر الجيدي

(1) كفهرس الفهارس للعلامة الكتاني. و«الاعلام بمن حل مراكش وأغमत من الاعلام» للمراكشي. والسعادة الأبدية لابن الموقت وغيرها.

(2) معلمة المدن والقبائل لعبد العزيز بن عبد الله 199 — 200. ط 1977 مط : وزارة الأوقاف.

(3) نفس المرجع على أنني لم أجد نصا لهذا القرار في تحاف ابن زيدان مع أنه أورد فيه عدة ظواهر أصدرها السلطان الحسن الأول في قضايا خاصة وعامة. انظر ج 332/2 وما بعدها ط 1349 هـ.

وما تعلل به الأجانب من اضطهاد أهل دمنات لليهود للتدخل في شؤون المنطقة مجرد كذب وافتراء، وإلا فقد ذكر الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله (4) أن الرحالة الغربي شارل دوكونولد لاحظ أثناء مروره بالبلدة حسن تصرف المسلمين إزاء اليهود إلى حد أنه كان يصعب التمييز بين المسلمين واليهود من شدة تمازجهم.

وفي المدينة مغارة تسمى «إيمي نيفري» يقصدها اليهود والمسلمون لسقي الماء على التساوي، ولو صح ما فسر به الأجانب تدخلهم في المنطقة لما شارك المسلمون هؤلاء اليهود في أس من أسس الحياة الذي غالبا ما تتقاتل عليه القبائل المنحدرة من جد واحد، فأحرى المسلمون واليهود.

احتل الكولونيل مانجاب المدينة عام 1912 فكانت بذلك أولى المدن المغربية المستعمرة.

يتواصل أهل هذه المنطقة باللسان البربري، وهو عندهم مزيج بين «تامزيغت» السائدة في الأطلس المتوسط (5)، و«تاشلحيت» المنتشرة في الأطلس الكبير، يعلم ذلك من له صلة بالجهة، أو نظر في المصادر المؤرخة لها، على أن العلامة علي بن سليمان أظهر غير ما مرة في تواليفه «أمازيغيته» (6)، بل ذهب به الأمر إلى حد التأليف بها (7).

والنسبة إلى «دمنة» تكون وفق القياس النحوي بحذف هاته هكذا : «دمني» ولكن جرت عادة العلماء أن ينسبوا المنحدر من هذه المدينة بجمع مؤنث سالم هكذا : «دمناتي»، وكثيرا ما ينسبون إليها بلا ألف على هذا النحو : «دمنتي» وهو صنيع المترجم نفسه.

وقد اشتهر بالنسبة إلى هذه المدينة بعض كبار علماء المغرب وفقهائه منهم العلامة محمد بن محمد كرداس (8) الدمناتي، والأديب الفقيه العلامة أبو حامد العربي بن محمد الدمنتي الفاسي، (9)، والعلامة المحدث، المترجم، أبو الحسن علي

(4) المعلمة 200.

(5) نقلا عن الأستاذ أحمد التوفيق في دراسة له عن رسالة البجمعوي إلى آفاق الاسلام بنشرها في «النهضة والتراكم» الصفحات من 247 إلى 277. دار توبقال للنشر 1986.

(6) كما فعل عندما ضبط «ابن اجروم» صاحب الكراسي في النحو، واعتبر الكلمة أمازيغية معناها : الرجل الفاضل، ومن ضبطها بغير هذا — على حد قوله — فلجهله بهذا اللسان.

(7) له بها شرحان على ابن عاشر.

(8) ترجمته في أعلام المراكشي ج 187/7 طبعة الرباط.

(9) ترجمته في فهرس الفهارس للكتاني ج 301/1.

بن سليمان الذي يفوق كل المنتسبين إلى دمنة شهرة وشرفا، حتى أن هذه النسبة عند إطلاقها لا تنصرف إلا إليه، وإذا أريد غيره ميز بقيود زائدة، لا بالنسبة المطلقة المجردة.

في هذه المنطقة إذن ولد العلامة ابن سليمان (10) من أسرة طيبة (11) تشهد القرائن على يسر حالها وعلى تدينها وسنيتها، وتقديرها للعلم والعلماء — مما كان مددا للابن — فحصل من أمر الله ما سنرى.

الفصل الثاني : حياته العلمية

المبحث الأول : بداية أمره الدراسي

قال الامام في فهرسته : «فلتعلم وفقنا الله تعالى وإياكم أني كنت بأول أمري ولدا بالقراءة أبلد من رأيت، والجراءة أجلد من رأيت، فكان والدي رحمة الله تعالى لا يبغى لكل ولد له بدلا عن القراءة فلم أتمكن من تركها إلى المراهقة، فتوفي والدي قدس الله روح كل موحد فكان موته أحب إلي من الماء البارد في الظمأ البعيد مشربه عن الوارد فتركها إذ ذاك (12)»

بعد أن قرأت هذا النص عدة قراءات وحاولت تحليله وتفكيكه واستخراج أبعاده، رأيت اختزاله في قضيتين أساسيتين، هما :

1. حرص الوالد على تعليم الولد.
2. أباية الولد التعليم والتعلم كل الاباية.

(10) وتوفي بمراكش عام 1306 هـ بلا خلاف، ودفن بالروضة الملاصقة لضريح الشيخ أبي العباس السبتي بازاء السرجب على ما جاء في الصفحة 260 في أعلام المراكشي.

(11) هذا استنتاج فقط من وراء سطور فهرسته، وإلا فالترجم نحاشي كليا التأريخ لأسرته وأجداده، وكيفما كان الحال فهذه الأسرة هي المشرفة به، لا العكس على غرار ما جاء عن المتنبي.

(12) أجلى مساند على الرحمن في أعلى أسانيد علي بن سليمان. ص 4 ط. 1298 هـ. م : الوهبة بمصر.

أما حرص الوالد على ادماج أبنائه في الاسلاك الدراسية المعروفة في عصره، والاستغناء الكلي عن خدماتهم العضلية على خلاف أغلب القرويين الذين يعتبرون الأولاد من وسائل الانتاج، وبالتالي يتضايقون من تعليمهم، ويتملصون منه بشتى الوسائل، فلا يمكن تفسير موقف الوالد إزاء العلم والتعلم إلا انطلاقا من هاتين الفرضيتين :

أ. الوالد ميسور الحال وفي غنى عن خدمات الأبناء
ب. الوالد متعلم ومتفتح و«مثقّف» بالمفهوم العصري، أو على الأقل واع بأهمية المعرفة.

أما الفرضية الأولى فقد تبين لي صدقها انطلاقا من نص «مدفون» في فهرسة الامام (13)، جاء فيه : «فكنت بدارنا أفعل ما يفعله خدمتنا».

فالخدم جمع، واحده خادم، غلاما كان أو جارية، وكون الأب له جمع من الخدم دليل على يسر الحال، إذ المعدم لا يكون له خدم ولا خادم، بل العادة تقتضي في أغلب الأحوال أن يكون خادما لا مخدوما، فإذا استقام هذا الاستدلال، وصح هذا الاستنتاج فوالد العلامة مستغن بالمال والخدم عن خدمات الأولاد.

أما الفرضية الثانية، فلم يصح عندي أن الوالد كان «مثقفا» ولا متعلما، ولكن ثبت عندي أنه كان واعيا بأهمية المعرفة، ولولا هذا الوعي لما جنح لتعليم الأولاد هذا الجنوح.

فإذا اجتمع المال والوعي لدى والد، شق عليه ترك الأولاد في قبضة الجهالة.. هذا عن القضية الأولى التي استخرجتها من النص الذي افتتحت به هذا المبحث.

أما عن القضية الثانية، وهي إباية الولد للتعليم كل الاباية، فقد عللها المترجم نفسه بالبلادة (14).

إلا أن هذا التعليل غير مقنع، إذ البلادة ناتجة عن نفور مسبق من التعليم، فهي مسببة لا سبب، ولو كان مكان النفور شغف بالدراسة ما كانت هناك بلادة، والانسان بليد فيما يكره، وبالشغف تزول البلادة، وما حمل علي بن سليمان على تعليل نفوره من التعليم في بداية أمره بالبلادة إلا رغبته في أن ييني على هذا التفسير مسائل كثيرة تتعلق بحياته العلمية. (15).

(13) الصفحة 4 من فهرسته

(14) الصفحة 4 من فهرسته

(15) منها أن نبوغه العلمي ناتج عن فتوحات ربانية وإشراقات إلهية، لا عن استعداداته العقلية إذ هو من البلادة بمكان.

وإذا تم استبعاد هذا التفسير، فينبغي تعويضه بتفسير أقرب إلى الموضوعية وإلى العلمية حتى لا تبقى الحالة معلقة بلا تحليل ولا تفسير.

والأقرب إلى الصحة في نظري أن آباية علي للتعليم معللة بنوعية المناهج والطرق التعليمية المتبعة في دور العلم في عصره وما قبله. تلك المناهج التي تعتمد على الضغط والضرب وتغليظ الصوت وتشديد الخناق، وهذا مضر بالمتعلمين عموماً، سيما بأصاغر الولد، حديثي العهد بالجدية، ويحملهم على الكذب والكسل والنفور من الشيخ ومسائله، ومن العلم ودقائقه.

هذا ما حصل لعلي بن سليمان في أول حياته الدراسية، ربما تلقى من شيخه بعض الضربات القاسية، أو تلقاها غيره بحضوره فخاف أن يصل دوره، مما حمله على محاولة ترك القراءة والانصراف عنها في حياة أبيه، إلا أنه لم يفلح أمام تيقظ هذا الأخير. قال : « فلم أتمكن من تركها إلى المراهقة » (16). ويفهم من قوله « لم أتمكن » أنه حاول عدة مرات، إلا أن رقابة الأب الشديدة تحبط كل محاولاته. وهذا ما صير الوالد شبهاً بممقوتا في حياة الابن يكرهه كراهة لا مزيد عليها، ويرى في عيشه عبثاً ثقيلاً، وحملًا لا يطاق. هذا ما فسره بقوله بعد أن توفي الوالد (17) : « فكان موته أحب إلي من الماء البارد في الظم البعيد مشربه عن الوارد ».

وكان أول شيء فعله بعد واقعة الوفاة، أن انسل من الدراسة وانفصل عنها نهائياً، واضعاً بذلك همها وهولها وأثقالها ليجد نفسه في الدار مع الخدم، يشاركونهم الأعمال العضلية التي يقومون بها يومياً.

ولم تكن أمه مرتاحة لهذا « العاق المراهق » الذي آثر الجهالة على العلم، والظلام على النور والبيان، فكانت تتأسف على أحواله ومواقفه، إلا أنها لا تملك من القوى المادية ما يكفي لإجبار الابن على العودة إلى القراءة، فسلكت معه منهجاً وجدانياً للاقناع، عمدته الدعاء والحث، قال : « وكانت والدتي رحمنا الله تعالى وكل موحد تتأسف على ذلك وتدعو لي كثيراً، وكثيراً ما تقول : نور الله صدرك يا ولدي، والله ما أنا يائسة من قراءتك » (18).

وهذا الأسلوب الموجه للوجدان، المؤثر الصادر من قلب الأم الحنون، المشحون بدلالات عاطفية صادقة... كاف لاقتناع الابن بالعدول عن موقفه تجاه

(16) الصفحة 4 من فهرسته.

(17) الصفحة 4 من فهرسته.

(18) الصفحة 4 من نفس المصدر.

العلم، إلا أن خطاب الأم ينكسر على الصخر ولا ينفذ إلى الأعماق ليظهرها مما علق بها من تصورات فاسدة للعلم والدراسة.

وهكذا بقي الطفل في قطيعة تامة مع الأم وما تدعوه إليه، وفي وصال مع الخدم والغنم، يجر ما يجرون، ويحمل على الظهر ما يحملون، وسار على هذا النهج إلى أن غاب راعي غنمهم يوما، فتولى رعيها — نيابة عنه — إلى اصفرار يوم، فساق الله له رجلا في هيئة الرعاة اقترب منه وفتح به خطاب رمزي لم يفهم منه ابن سليمان إلا الصورية، لم يقصده الغريب، ناداه بعالم وحلاه، والمنادى في وقت اللقاء ليس عالما ولا متعلما، وأخبره أن من كان عليه مثل شعره تصلح على يديه الغنم، فوقع خلاف هذا التنبؤ حيث ابتليت معظم الشياه بالكسر في الأرجل وتوالى فيها الكسر إلى أن ساء ظن الطفل فيها، واستاء من أمرها، وجره ذلك إلى مساءلة نفسه، وإعادة النظر في اختياراته ومواقفه، وهذا ما حكاه بقوله : «فكنت أرهاها إلى قرب اصفرار يوم مبارك فساقني الله إلى جبل عال بآخر مرعانا منفردا عن الرعاة، فاستقبلني راعي غنم ما رأيته بغنمه قبل ولا بعد بذلك المرعى قائلا : يا عالم صرت راعي غنم، فألى أين مع رعايتها ؟ وجعل يمسح إذ وصلني على رأسي ويقول : من كان على رأسه مثل هذا الشعر تصلح على يديه الغنم (...). فكان من بركة هذا الرجل أن ابتليت تلك الغنم بكسر أرجلها إثر ذلك تمام نحو سبع شياه، كلها أتركها بالدار مكسورة، فقلت يوما : مالي ولهذه الغنم ؟ فلو أتي ذهبت لقرائتي لكان خيرا» (19).

فقرر ترك ما هو عليه إلى القراءة بسبب هذه الواقعة التي اعتبرها الأستاذ التوفيق (20) رؤيا منامية وأوافقه على هذا التأويل إذ في الحكاية كلها من النوازل ما يصعب تحقيقه في الواقع بلا علل مادية وعوامل معقولة، ومؤثرات خارجية محسوسة، فتوالى الكسر في أرجل الغنم لا يمكن تعقله إلا بالوقوف على أسباب تلك الكسور، إذ لا يتصور عقلا حدوث تغيرات مادية على الأبدان البشرية، والأجسام الحيوانية من كلوم وشدوخ وكسور... بلا مؤثرات خارجية يمكن ضبطها، والمترجم لم يبين لنا في النص المسببات المادية، وغفل ذكر الأسباب، مما يحملني على موافقة الأستاذ التوفيق في اعتبار هذه الواقعة «رؤيا»، وإن لم يشر صاحبها إلى ذلك في كلامه.

(19) نفس الصفحة والمصدر.

(20) في دراسته المقدمة عن الشيخ ورسالته إلى الآفاق، المنشورة في «النهضة والتراكم» ص 257.

على أن كون النازلة قد حدثت فعلا أو هي رؤيا، كل ذلك لا ينقص من أهمية دلالتها، إذ هي التي قلبت اقتناعاته، وحملته على مراجعة نفسه واعتقاداته، مما نتج عنه عودة «المراهق» إلى الدراسة، لكن هذه المرة بنفسية معاكسة لسالف أمره، محمولة بطاقات فعالة لاستدراك الفوائد في أقرب وقت...

وكان طبيعيا أن تلين للفتى مسائل العلم وقضاياها، بعد أن أظهر لها الخزم، وواجهها بالعزم والجدية، وقاتلها قتال المستميت، فكانت النتائج الطيبة أسرع مما يتصور، مما حمله على الاستغراب من سرعة الادراك والتحصيل.

تحول عجيب في الحال، البلادة في الأمس، والفظنة والتيقظ وشدة التركيز والفهم في اليوم، وهذا التحول السريع الغريب لم يجد له البوجهي تفسيرا عقليا مقنعا، فربط بينه وبين عدد من رؤى غيبية حصلت له، منها ما جاء في قوله : «قلت متأسفا ياليتني عرفت العلم فأحسنها كل الاحسان بحيث تحلو عند كل إنسان، فكان من مننه عز وجل ذاتا واسما وصفة بالنومة الموالية لهذه الأمانة، رأيته بداخل دار مزخرفة فيحاء مشرفة لا أظن بها غيري، فإذا بالنبي (ﷺ) داخل علي من بابها (...) فأخذ بيدي قائلا : تعال لتقرأ فاستقبلنا بيتا من بيوتها فلما دخلناه وجدنا درسا قد استدار بأشخاص جلة ذوي هيئة ما رأيت أهل ذلك المحل قط وعوض، فلما رأوه فتحوا له فرجة ليجوز لمقامه، ثم ردت تلك الفرجة وصار نصف القوم يمينا ونصفهم يسارا فقال (ﷺ) : هذا مقامك فاجلس فجلست (...) فكان ذلك أول فتح لي في العلم، وأول مجلس جلسته (21)».

تري من خلال هذا النص الطويل أن أول فتح في العلوم حصل لابن سليمان كان عقب لقاء روحي بينه وبين رسول الله (ﷺ)، ولعل المقصود بالفتح يسر التحصيل وسرعة الفهم والتمكن من الدقائق والحقائق.

وزاد الدمتمتي على ذلك بأن ذكر أنه لقي رجلا صالحا سائحا بالأرض ليس له قرار من أهل مولاي عبد السلام بن مشيش، فأخبره بجميع ما يؤول إليه أمره من تأليف التأليف وتقعيد القواعد (22).

وكانت أخبار هذا السائح مشجعا للبوجهي على المواصلة والاستمرارية وشدة التركيز لا سيما وأن الرجل السائح لعب دور الوساطة بين رسول الله (ﷺ) والطالب.

(21) ص 7 من فهرسته.

(22) نفس الصفحة والمصدر.

ومضى الامام يحدثنا عن رؤاه المتعددة، أصل الفتوح ومصادر الاشراف، وذكر أنه رأى نفسه مرة أخرى مع رسول الله (ﷺ)، وكان الزمخشري في حلقة درس، وبينه وبين رسول الله حجاب مشبك بحديد، فتكلم الزمخشري بكلام في أوصافه (ﷺ) لم يرق البوجمعوي، وهو في رفقة المصطفى، فتدخل لتصحیح كلام الشيخ، قال : «وأیضا رأيتني معه (ﷺ) في محفل آخر في غرفة محلقين عليه أنا وغيري للقراءة، وكان الزمخشري يدرس العلم تحتنا وبيننا وبينه حجاب مشبك بحديد، فجرى الكلام ببعض أوصافه (ﷺ)، فقال بخلاف ما هو عليه فالتفت إليه بوجهي من حلقة (ﷺ)، فقلت له : يا شيخ من كان ببركته كل العدد وكل المدد كيف لا يكون فوق ما تذكره، لم أزد على ذلك راجعا بوجهي نحوه (ﷺ)، وهو يتسم» (23).

لم يذكر البوجمعوي — مع كامل الأسف — كلام الزمخشري في أوصاف رسول الله (ﷺ) حتى نعلم قيمة رده عليه، ومدى استحقاقه لابتسامه المصطفى رضى بما صنع وقبولا لما قال. وعلى كل حال، فإن رأى الشيخ متعددة ومتنوعة، وإليها يعزوا ما أدركه من علوم ومعارف لا إلى استعداداته المادية ولا إلى قدرات ومناهج شيوخه الهيكليين.

المبحث الثاني : شيوخه

إن المنهج العقلي الضيق لا ينفع في تحليل بعض الظواهر التي تصادفك وأنت تتأمل حياة الشيخ العلمية والعملية، فشدة تركيزه على المسائل الغيبية تجعل التفسير العلمي متعذرا، ولا نملك إزاء هذا الاصرار إلا التسليم بقضاياه وقبولها دون عرضها على المحك العقلي، والبحث على كل حال مسوق لدراسة نتائج الامام بصرف النظر عن صدق المقدمات التي ترتبت عليها تلك النتائج — أو كذبها — عندنا على الأقل.

حتى الصحابة — حمزة وغيره — تلقى عنهم — كما ذكر (24) — العلوم والمعارف لمدة عشرين عاما، على أنني سأضرب صفحا عما له علاقة بالغيبات، واكتفى بالحديث عن بعض شيوخه الماديين.

(23) الصفحة 7 من فهرسته.

(24) الصفحة 8 من فهرسته.

كانت للشيخ مشيخة واسعة، التقى فيها علماء المغرب بعلماء المشرق فكان من شيوخه المغاربة.

1. أبو العباس أحمد بن محمد التمجدي⁽²⁵⁾، نسبة إلى «تمكيدشت»، وهي مدشر فسيح في بسيط مليح طيب التربة، ملم شعت الغربية، منور اليراح، للقلب فيه انشراح «تنتمي اليوم إلى مركز تافراوت، وتبتعد عن مدينة تنزيت بنحو 120 كلم شرقا، بها زاوية للعلم والتصوف، أسسها المترجم — أبو العباس — في القرن الثالث عشر، وكانت ثانياة الزوايا العلمية الكبار التي عرفها الجنوب بعد تامكروت. كان شيخ هذه الزاوية عالما كبيرا، محدثا مسندا، مفسرا فقيها، عارفا بالله، صالحا وليا، يأتي إليه الطلبة⁽²⁶⁾» «من كل فج عميق لعلمهم أن زاويته مأوى التحقيق والتدقيق، يفتح الله فيها الباب، على القراء أولى الأبواب». يدرس فيها من العلوم ما يدرس في فاس ومصر والحجاز. وزادت عليها بعلم التصوف، وبه اشتهرت في المشارق والمغارب حيث سارت بفضائلها وكراماتها ومناقبها الركبان، وكمن بدور ضاوية طلعت من تلك الزاوية، وكمن من محدث وقطب وفقه تخرج بها على يد قطبها وأستاذها أبي العباس الذي وصف ابنه أحواله بقوله: (27) «يأكل بالسنة ويصافح بالسنة، ويشرب بالسنة، وينكح بالسنة، ويرقد بالسنة، ويقوم بالسنة (...) كان يستغرق الليل بالعبادة، رتب أوقاته، وضبط أحواله (...) خدم العلم الشريف بنفسه وماله وعياله، ولم يأخذ عليه أجرا، بل أقام زاويته من غير اعتماد على عشيرة ولا قبيلة» بتصرف.

كانت محبته للمصطفى فوق كل محبة، يطرب لسماع اسمه، ويجتهد في اتباعه في كل شيء، في الحركات والسكنات، حتى في الأعمال الجبلية المركوزة في طبيعته (عليه السلام)... وبذلك تيسرت له رؤيته في المنام، أو في السنة الشبيهة باليقظة، وكذا كان يحصل لأصحابه وتلامذته ذوي النيات الحسنة، وإليه كانت رحلة علي بن سليمان البجمعوي الدمنتي، ليشارك غيره من الطلبة والمريدين في اشراقات الشيخ وأنواره وفتوحاته، لعله ينال من ذلك الفيض الرباني الحظ الوافر.

على أن الامام علي بن سليمان لم يذكر لنا متى كانت رحلته إلى الشيخ، ولا حيثيات هذه الرحلة، وإنما اكتفى بسرد بعض مروياته عنه.

(25) توفي بسوس سنة 1274 هـ خصص له ولدة ترجمة وافية عنوانها «رسالة الأنوار» ذكرها ابن سودة في ج 1 ص 211 من دليله، واختار السوسي في المعسول ج 6 ص 174.

(26) كلام نقله المختار السوسي من كتاب المؤرخ المشرقي الفاسي عن آل تمكيدشت.

(27) نقلا عن المختار السوسي في المعسول ج 7 ص 174.

قال : «ومن أجازني إجازة عامة بما تداولته الأئمة منظوما ومنثورا لغة وأصولا وحديثا وتفسيرا وغيره فروعا ونحوا وبيانا وغيره، ومنطقا وغيره الامام الجلي الدارية الولي الراوية الذي نفع الله به البلاد السوسية أبو العباس سيدي أحمد السوسي الأقصوي الاجناني. التمجيدشتي رضي الله تعالى عن كل موحد» (28).

وأسانيد هذا الشيخ عالية إذ بينه وبين ثلاثياته ستة عشر واسطة. قال : «فصل بصحيح محمد بن اسماعيل البخاري، فإني أرويه من طرق بها طريق شيخنا أبي العباس أحمد السوسي أعلى سند بالمغرب حسبما وقفت عليه، إذ بيني وبينه بأعلى ما عنده ثلاثياته ستة عشر واسطة (29)».

وذكر الشيخ هذا السند في أول فهرسته، وسمى فيه خمسة عشر إسماء، يضاف لهذا العدد سند الثلاثيات فيكون مجموع الوسائط بينه وبين النبي (ﷺ) ثمانية عشر. وسبب قلة الوسائط في هذا السند — على ما يبدو — أن أغلب الرواة المكونين له عمرا طويلا، فمنهم من عاش مائة سنة، ومنهم من عاش ثلاثا وأربعين ومائة سنة (30).

ومن نفس الطريق يروي عاليا سنن أبي داود السجستاني، قال (31) : «أرويه بطرق أعلى ما رأيته عن شيخنا أبي العباس أحمد السوسي عن الإوجي عن الحضيكي : بحاء فضاء فقاف، كقريش، عن أبي العباس الصوائي عن أبي العباس ناصر عن الملاعن صفي الدين بالاجازة العامة، عن الشمس الرملي عن زكرياء عن مسند الديار المصرية عز الدين عبد الرحيم المعروف بابن الفرات عن أبي حفص عمر بن الحسين بن يزيد المراغي، عن الفخر علي بن أحمد بن عبد الواحد عن أبي حفص عمر بن محمد بن طبرزدا البغدادي قال أنبأنا الشيخان ابراهيم بن محمد بن منصور الكرخي وأبو الفتح مفلح بن أحمد الرومي سماعا عليهما، قال أنبأنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي أنا أبو داود يعني المؤلف».

وبعد أن سرد المترجم هذا السند بتمامه ذكر أن عدد أسمائه ثمانية عشر، فتكون الوسائط بينه وبين النبي (ﷺ) بأعلى ما عند أبي داود من ربايعيات اثنين وعشرين واسطة.

(28) الصفحة 9 من فهرسته.

(29) نفس المصدر الصفحة 18.

(30) ذكر الدمناني في الصفحة التاسعة من فهرسه بعد ذكره لما رواه عن التمجيدشتي أن التفرغرتي أخبره أن عدة رجال من هذا السند عمروا طويلا.

(31) الصفحة 23 من الفهرس.

وعلى كل حال فقد روى الدمنتي عن طريق أبي العباس التمجيد شتي عدة مؤلفات في الحديث وغيره. وإلى طريقه يشير بالطريق السوسي.

2. أبو العباس أحمد بن عمر الدكالي :

وهذا الشيخ عمدته في كل الفنون المتداولة، وكان سبب تعلقه به أن رأى النبي (ﷺ) بصورته، قال : «الذي عليه عمدتي في كل الفنون المتداولة لأهل السنة رواية ودراية هو من رأيته (ﷺ) بصورته المذكور قبل ذلك هو الامام الفهامة المهمام العلامة الذي به من الفضائل والفواضل ما لم أره لغيره، ولي الله السباعي الدكالي الفرجي ناصية الناس أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد فتحا بن ميمون قدس الله روح كل موحد» (32).

والغريب أني لم أجد له في فهرسته رواية عن هذا الشيخ، ومنطق الأشياء يقتضي أن تعدد رواياته عنه باعتبار أنه العمدة في جميع الفنون المتداولة، زيادة على العلاقة الروحية التي تربطه به، إذ رأى — كما تقدم — الرسول (ﷺ) في صورته. ولم يبين لنا الدمنتي — وهذا قصور منه — متى وأين وكيف التقى بهذا الشيخ، وأحواله وبعض أخباره واجتهاداته وشيوخه ومؤلفاته، إن كانت له، فهو يجمل في هذه المسائل، ولو فصل فيها لكان أفضل.

3. أبو بكر عبد الله بن علي التمكروتي :

في حدود الستين رحل الدمنتي إلى الزاوية الناصرية بتمكروت على وادي درعة، وهي من المراكز العلمية والصوفية الشهيرة، وغرضه — على ما أرى — الاطلاع على الطريقة الناصرية في مصادرها، إذ هو مسكون بهوس سبل القوم ومناهج العارفين، لذلك لم يكتف بما أخذه عن الغوث أبي العباس أحمد السوسي وعن غيره من أقطاب مختلف الطرق، ولما حط الرحال بالزاوية الناصرية، وبعد بحث ونظر، وجد الطريقة الناصرية أجدر بالاتباع من غيرها، فالتزمها — مصاهرا أهلها — مسخرا علمه لها، موضحا ومدافعا ومقرضا.. قال في هذا الصدد : «فلتعلم وفقنا الله وإياكم أن طرق أبي الحسن الشاذلي كثيرة شرقا وغربا، وأشهرها عندنا بالمغرب الناصرية والوزانية والمختارية والدرقاوية، وكلها مباركة ميمونة كسائر محققات طرق الأولياء، وأبركها وأمينها حسبما شاهدناه الناصرية، إذ طرق خاطري

بأعوام الستين أن أطوف على ما اشتهر عندنا بالمغرب وعلا صيته علما وعملا، فأنجزت ذلك فلم أجد أحدا اجتمع به الشرطان إلا ناصريا فالتزمتها» (33).

وكان شيخه فيها أبو بكر عبد الله بن علي الناصري التمكروتي صهره ومجيزه فيها، قال : «أخذ أفقر العبيد إلى رب العالمين ذلك المذنب الدمطي علي بن سليمان عبدك، اللهم اغفر له ولكل موحد، الطريقة الجيلانية الشاذلية الناصرية نسبا الشاذلي قلبا، إجازة عامة مفازة تامة ما رأيت مثلها إيجازا أو إطنابا زرت بكل غلب، جمعت كل الافنان ورمانا وأعنا بإذ كتب وقال : لم أكتب لغيرك قط بقرب موته بعد كتبه البسملة والتصلية أجزنا الصهر الفقيه سيدي علي بن سليمان بكل شيء ظهرا وبطنا فمدها لي» (34). ثم أتى ابن سليمان على السند كاملا من صهره المجيز إلى القطب مولاي عبد السلام بن مشيش..

وهكذا جمع المترجم علم زاويتين عظيمتين، زاوية تمكيدشت، وزاوية تمكروت، فكمل وكبر، ولم يعد في حاجة إلى تتبع آثار شيوخ آخرين قد يكونون أقزاما بجانب الذين أخذ عنهم، وربما فاقهم هو علما وعملا، ولكن المهمة التي وهبها لم تدعه ليقنع بما جمع وحفظ ووعى، وفكر في توسيع الزاوية وإعلاء السند، سنة سلف الأمة الصالح.

فرحل الامام إلى المشرق عدة مرات، ولقي به عددا كبيرا من الشيوخ المبرزين في عصره، أعلام مختلف المذاهب الاسلامية المعروفة، فاستجازهم وأجازوه بعد أن جالسوه وجالسهم، وعلموا ما عنده وعلم ما عندهم.

وقد مكّنه من القيام برحلات متعددة إلى المشرق انتهاؤه بالمصاهرة إلى الزاوية الناصرية التي سنت سنة حسنة لم تعرف لغيرها من الزوايا، وهي تنظيم الرحلات الحجية كل عام. وما كان ابن سليمان ليتخلف عن رحلة من هذه الرحلات، وهو الذي يتفجر لهفة وشوقا لقبر الرسول (ﷺ) والأماكن المقدسة، ويتقطع رغبة في توسيع الرواية وإعلاء السند وتصحيح المناهج، وتجديد المعارف. وذكرت المصادر (35) أن رحلته الأولى كانت عام 1275 هـ والثانية عام 1276 هـ والثالثة 1284 هـ والرابعة 1286 هـ والخامسة سنة 1293 هـ، والسادسة 1302 هـ. ولا يبعد أن تكون له رحلات أخرى لم تذكر، لا سيما وأن أغلب كتبه في الحديث مطبوعة في مصر. وفي سنة 1298 هـ.

(33) الصفحة 57 من فهرسته.

(34) نفس الصفحة ونفس المصدر.

(35) نقلا عن دراسة أحمد التوفيق - النهضة والتراكم ص 276.

وقد ذكر في فهرسته بعض الشيوخ المشاركة الذين لقيهم وأخذ عنهم وأجازوه، وكان حرصاً على أن يكون هؤلاء من كبار المفتين في المذاهب الفقهية الأربعة بالحجاز ومصر، ورغبة منه في الاطلاع على الفقه المقارن، وكان من هؤلاء الشيوخ :

4. العلامة الإمام أحمد دحلان : مفتي الشافعية، لقيه فاستجازه فقبل وقال : «أما بعد فقد طلب مني العالم الفاضل اللوذعي الكامل السيد الشريف الحاج علي بن سليمان الدمنتي أن أجيزه بكل ما يجوز لي رواية ودراية، فأجبت له لذلك، وإن كنت لست أهلاً لما هنالك» (36).

وبسند هذا الشيخ يروى الدمنتي الموطأ عالياً، قال : «أرويه من طرق أعلى ما رأيته عن العلامة دحلان عن الدمياطي عن الأمير» (37) وأتى على بقية السند إلى يحيى بن يحيى الليثي عن الإمام مالك. وعدد الوسائط بينه وبين مالك بحسب هذا السند (38) اثنان وعشرون، وبينه وبين الرسول (ﷺ) أربعة وعشرون واسطة بثنائيات مالك في الموطأ.

وعنه أيضاً روى صحيح مسلم (39) بن الحجاج القشيري بسند عال، عدد الرواة فيه سبعة عشر إلى المصنف، وواحد وعشرون إلى الرسول (ﷺ) في رباعيات مسلم.

وعن نفس الشيخ روى بسند عال سنن أبي عبد الله ابن ماجة القزويني رضي الله تعالى عنه (40)... وعلى وجه الاجمال فقد روى المترجم عدة مؤلفات حديثة بأسانيد عالية عن الشيخ أحمد دحلان، والناظر في فهرسة ابن سليمان سيلاحظ تكرار هذا الاسم في أغلب الطرق والأسانيد الواردة فيه.

5. الشيخ عبد الغني الهندي ثم المدني (41) :

مجيزه في الحديث والفقه والتفسير، لقيه عام ألف ومائتين وأربع وثمانين أثناء رحلته الثالثة إلى المشرق، قال الدمنتي : «ومن أجازني إجازة عامة شيخنا الهمام

(36) الصفحة 12 من فهرسته.

(37) الصفحة 14 من فهرسته.

(38) الصفحة 15 من فهرسته.

(39) الصفحة 21 من فهرسته.

(40) الصفحة 29 من فهرسته.

(41) الصفحة 10 من فهرسته.

العالم العلامة الولي الصالح الجلي الناصح الهندي ثم المدني سيدي الشيخ عبد الغني» (42) وأثبت نص الاجازة التي ظفر بها من هذا العالم في فهرسته، جاء في أولها : «الحمد لله الذي شرفنا بمجاورة بلد المصطفى، وأرشدنا لاقتفاء آثاره وأخباره فنعم المقتفى، وجعل أفئدة الناس تهوي إلينا مع فضلهم علينا بالعلم والورع والأدب والتقوى، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى، أما بعد : فقد ورد علينا أول المحرم من سنة ألف ومائتين وأربع وثمانين الفاضل الجليل والبارع الأديب النبيل، ذو الفضل والاتقان مولانا علي بن سليمان من البلاد المغربية وسمع مني الحديث المسلسل بالأولية، وطلب مني الاجازة العامة من كتب الحديث والفقه والتفسير وغيرها (...) فأجزت له إجازة عامة أن يروي عني هذه الكتب»

غير أنني لم أجد للدمنتي رواية لمصنف من مصنفات الحديث والفقه والتفسير عن هذا الشيخ.

6. الشيخ ابراهيم بن سيدي حسن مفتي المالكية :

لقبه المترجم (43) سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف أثناء رحلته للديار المشرقية فجالسه واستجازه ونال منه المبتغى، ونص الاجازة مختصرا : «أما بعد، فلما كان السند كالصارم للقتال والسبب الموصول إلى كل شاخ عال، وكان الخلي عن الاسناد كالدعي إلى الآباء والأجداد، وإن طالب العلم بلا سند كالمغترف في ماء بلا مدد، التمس مني العالم الجليل القطب النبیه الذكي اللودعي مولانا السيد الشريف الحاج علي بن سليمان الدمنتي أن أجيزه بما دريته في المعقول، وما رويته من المنقول، فاجبته لذلك، وإن كنت لست من رجال تلك المسالك (...) وحرر يوم السبت المبارك خامس عشر من ذي الحجة الحرام سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف».

منطق الأشياء يقتضي أن أذكر عددا كثيرا من شيوخ المترجم، لسعة مشيخته وامتداد أطرافها من الجنوب المغربي إلى الحجاز، إلا أنني لم أعثر على غير المذكورين على الرغم من كثرة الحذر والنظر. والواقع أن المترجم اكتفى بهؤلاء في أسانيده ومروياته، بل أكثر أسانيده تدور على علمين فقط : أبي العباس أحمد التمجيدشتي والعلامة أحمد دحلان.

(42) الصفحة 10 من فهرسته.

(43) الصفحة 12 من فهرسته.

والذي لاحظته أثناء التنزه في رياض هذه المشيخة خلوها من أعلام فاس على وفرتهم في عصره. ولم يصح عندي أنه روى عن أحدهم لا سماعاً ولا إجازة. وكل المشاركة الذين أجازوه مغتربون له بالفضل والسمو وعلو المكانة، بل منهم من استجازوه فأجازهم، قال رحمه الله: «وقد أجازني أكابر أهل الجهات المذكورة من المدنيين والقسطنطينيين ممن يطول إحصاؤهم، كما أجزتهم حيث طلبوا مني ذلك».

المبحث الثالث : مؤلفاته

تقدم أن الحاج علي بن سليمان الدمنتي مهووس بالمعرفة، مسكون بهمومها وأشجانها لا يقدر عن الانسلاخ عنها لحظة، وهذا الجنوح «الجنوني» نحو قضايا العلم يستمد قوته وصلابته لدى المترجم من مصادر غيبية، ورؤى رمزية.

فالصلة الروحية قائمة بين المترجم والرسول (ﷺ)، يتلقى من الجانب الشريف الوصايا المؤثرة، والتشجيعات المغرية، تارة عن طريق الرؤى المنامية، وأخرى بواسطة الرجل السائح، مما كان للإمام مدداً استنار به في فضاءات المعارف والعلوم، فأدرك من أسرارها ما قصر عن إدراكه غيره من الافداد، ووقف على مكانها ومخفياتها مما جعله ينفرد بعجائب التدقيقات وغرائب التحقيقات، وبهذا المحصول لانت له مسائل التدريس، ودانت له قضايا التصنيف.

على أن الامام قدم التأليف على التدريس، فألف في جميع الفنون المتداولة أسفاراً قيمة شاع ذكرها، وذاع صيتها في المشرق قبل المغرب، تجدها ذكراً في المصنفات المشرقية (44) المختصة في إحصاء ما ألف في العالم الاسلامي من مؤلفات تستحق الذكر والدراسة.

وأثناء جمع مؤلفات الامام من مختلف المظان التاريخية والمراجع البيبلوغرافية عثرت على لائحة مرجعية لهذا الأمر، قام بوضعها بشكل علمي ومنهجي الأستاذ أحمد التوفيق ونشرها ضمن دراسة قيمة له عن رسالة للمترجم (45)، وهي التي أثبتت في هذه الدراسة، مع ملاحظات تصحيحية طفيفة، مرتبة أسماء الكتب فيها ترتيباً ألفبائياً، ودونكها :

(44) مثل إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون للبغدادي، وهدية العارفين لنفس المؤلف، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، وملحق بروكلمان... وغيرها.

(45) هذه الدراسة منشورة — كما تقدم — في كتاب : «النهضة والتراكم».

1. «أجلى مساند على الرحمان، في أسانيد علي بن سليمان»
وهو عنوان فهرسته، طبعت في مصر عام ثمان وتسعين ومائتين وألف
في ثلاث وستين صفحة، وتوجد بخط المؤلف نسخة (46) في الخزانة
العامة بالرباط تحت رقم 157 ق. أهدها ابن المؤلف أبو عبد الله بن
علي لعبد الحي الكتاني.
2. «اختصار الذخيرة» :
والكتاب المختصر هو «ذخيرة المحتاج في السيرة» للشيخ المعطي ابن
الصالح الشرقي، قال الأستاذ أحمد التوفيق (47) : «لا نجد ذكرا لهذا
التأليف إلا في تقايد عبد الحي الكتاني الذي وقف عليه في شكل
أوراق مبعثرة في صندوق خشبي صغير عند القائد أبي شعيب الشاوي
بخط المؤلف».
3. «اختصار حاشية الرهوني على مختصر خليل» :
توجد مخطوطة منه بخط المؤلف بخزانة الزاوية الناصرية بتمكروت تحت
رقم 784 في الفهرس الذي وضعه العلامة المنوني.
4. «أرجوزة في اصطلاح الحديث» :
توجد نسخة خطية منها (48) في مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت
رقم 1929 د/11 من ص : 190 إلى ص 195.
5. «أرجوزة لامية في القراءات» (49) :
بخزانة تمكروت تحت رقم 3209 في فهرس الأستاذ المنوني بخط المؤلف.
6. «أشهر الأنوار بشرح أزهر الأزهار» :
منظومة في علوم كالوضع والمقولات والصرف والنحو، ذكرها الكتاني
فيما عده للمصنف من مؤلفات، وذكر له صاحب «معجم
المطبوعات» عزة : «أشهر الأنوار بشرح منظومة أزهر الأزهار»، وذكر
أنها مطبوعة في مصر عام 1298 هـ في 167 ص.

(46) بل توجد نسختان بخط المؤلف في الخزانة العامة بالرباط، إحداهما تحت رقم 157 ق، والأخرى تحت رقم 1421 ل. ضمن مجموع.

(47) النضة والتراكم الصفحة 260.

(48) ذكرها العلامة عبد العزيز بن عبد الله في كتابه : «معلمة القرآن والحديث في المغرب الأقصى».

(49) ذكرها الأستاذ سعيد أعراب في كتابه «القراء والقراءات بالمغرب». الصفحة 163 الطبعة الأولى 1990/1410 دار الغرب الاسلامي بيروت.

7. «أصل العلم في حل السلم» :
يوجد بخزانة تمكروت تحت رقم 789 بل تحت رقم 3161 بخط المؤلف.
8. «أنجع الوتين في فتح المتن في أرجح الدين».
مخطوط بخزانة تمكروت تحت رقم 789 بخط المؤلف.
9. «الأنوار القيومية بشرح الاجرومية» :
وقد نقل أحمد التوفيق (50) عن الكتاني أن للمؤلف شروحا ثلاثة على منظومة ابن أجروم.
10. «تحرير غريب ابن الأثير» :
مخطوطة بخزانة تمكروت تحت رقم 668 بخط المؤلف.
11. «التحفة المرضية» :
شرح منظومة الحوض لأوزال. بخزانة تمكروت تحت رقم 3074.
12. «تعليق على شرح خطبة الألفية لابن مالك» :
كذا ورد في فهرس خزانة تمكروت تحت رقم 3141 بخط المؤلف.
13. «الترغيب والترهيب في اختصار الترغيب والترهيب للمندري» :
منه مخطوطة بخط المؤلف بخزانة تمكروت تحت رقم 3030.
14. «التيجان — شرح المرشد المعين» :
مخطوط بخزانة تمكروت بخط المؤلف تحت رقم 2463، ونسخة أخرى تحت رقم 694 وصفها الأستاذ التوفيق بأنها مبتورة الطرفين.
15. «تيسير الفرقان وتفسير القرآن (51)».
16. «جبر جناح الصالحين».
منه جزء واحد بخط المؤلف في خزانة تمكروت تحت رقم 809.
17. «جوامع الكلم الحسنة المنتصرة في لوامع حكم السنة المختصرة» :
علق عليه ذ. التوفيق قائلا : كذا ذكره الكتاني، وفي تقايده وردت كلمة «المسطرة» في محل «المنتصرة»، وقال عنه : رتب فيه أحاديث

(50) الصفحة 261 من النهضة والتراكم، وقد أخطأ الأستاذ التوفيق في اعتباره مذكرة ابن أجروم في مبادئ النحو منظومة، إن هي إلا ورقات نثوية موجهة للمبتديء.

(51) ذكره الدميني في مقدمة كتابه روح التوشيح.

الجامع الصحيح على مراتبها : الصحيحة على حدة، والحسان والضعاف على حدة.

18. «الحلل الرباسية باستجلاء الرحلة العياشية» :

في مسائل من التصوف. ذكره المراكشي في الاعلام عند ترجمة المؤلف.

19. «حلي نحور حور الجنان في حظائر الرحمان» :

في الأمداح النبوية نسبه له صاحب الاعلام، وقال الأستاذ التوفيق في شأنه : وقفت (52) على نسخة مخطوطة منه في خزانة المرحوم أحمد نجيب الدمناتي، شارك بها في جائزة الحسن الثاني للمخطوطات.

20. «درجات مرعاة الصعود إلى سنن أبي دود». حاشية :

وهو مطبوع بمصر عام 1298 هـ في 238 صفحة، وسيأتي الكلام عنه في فصل لاحق.

21. «رفع الجناح الذي وضعه عمر على رقاب الأمة بالرماح» :

وهو رسالة رد فيها على عمر الفوتي التجاني صاحب كتاب : «رماح حزب الرحيم على نحر حزب الرجيم» توجد بخط ولد المؤلف في مجموع بالخزانة العامة تحت رقم 157 ق.

22. «روح التوشيح على صحيح البخاري». وسيأتي الكلام عنه قريباً.

23. «روضة القراء لورشهم في أحكام تجويدهم» :

مؤلف في القراءات، وقف عليه عبد الحي الكتاني، وله لامية في الموضوع (53) بتمكروت تحت رقم 3074.

24. «الزين القاصم في حل تحفة ابن عاصم» :

نسبه له المراكشي والكتاني، ورقمه بتمكروت 801.

25. «سنن الكبرا وغنى الفقرا» :

في الوعظ والتذكير، بخط المؤلف في خزانة تمكروت رقم 773.

26. «صرح الخليل في شرح الخليل» :

شرح المختصر الخليلي، اعتمد فيه كما جاء في الاعلام شرح الدردير واختصره وصححه وفتح مغلقه. مخطوط بخزانة تمكروت، رقم 795.

(52) الصفحة 262 النهضة والتراكم.

(53) تقدم ذكرها.

27. «عرف زهر الرنى على المجتبى» :
تعليق على مختصر النسائي المسمى المجتبى، طبع بمصر عام 1299 هـ
في 162 صفحة.
28. «فتح الأنوار الجلية في شرح السملالية» :
لعلها في الفرائض — مخطوط بخزانة تمكروت تحت رقم 3075.
29. «فتح الله الونوسي في شرح صغرى السنوسي» :
منه مخطوط بخط المؤلف بتمكروت تحت رقم 834.
30. «الفرج في دفع الحرج» :
في الأدعية والأحزاب، ذكره الكتاني.
31. «الفيض المتفجر في لقط درر ابن حجر» :
يوجد مخطوط منه بخط المؤلف في خزانة تمكروت تحت رقم 60
32. «قصيدة في القبلية» :
بخزانة تمكروت تحت رقم 3134
33. «كتاب في التصوف» :
مخطوط في خزانة تمكروت تحت رقم 3140.
34. «لسان المتحدث، في أحسن ما به يتحدث» :
قال عنه الكتاني : «هو في مجلدين جمع فيه مواد النهاية والقاموس»
توجد نسخة منه بخط المؤلف في خزانة تمكروت تحت رقم 1289.
35. «محادي المختصر».
36. «مقدمة الفرقان في تفسير الفاتحة بجميع القرآن».
37. «مكرمات لباس التقوى، في كرامات أبي العباس الغاية القصوى» :
مؤلف في مناقب أبي العباس السبتي الشهير مدفنه بمراكش، وقف
عليه الكتاني.
38. «منار سبل الترخيص في نظم كل درر التلخيص» :
وقف عليه الكتاني، ويوجد بخط المؤلف في خزانة تمكروت.
39. «منجزات جنان الشفا في معجزات جناب المصطفى حسبما اقتضته
ظروف محمد الأنفة واستطقت حروفه الأربعة» :
مخطوط بخط المؤلف بتمكروت تحت رقم 2500. علق عليه

الكتاني (54) قائلا : «وقرط هذا المؤلف العجيب جماعة من أهل المشرق والمغرب كحسن العدوي المصري، ويوسف الحنبلي شيخ الحنابلة بمصر، والشهاب أحمد دحلان المكي ... وغيرهم».

40. «مواهب المالك في شرح ألفية ابن مالك» :
علق على هذا المؤلف الأستاذ أحمد التوفيق قائلا : «منه نسخة مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش تحت رقم 2.1/54 س غير كاملة وهي من تحبیس السلطان عبد الحفیظ على جامع المواسين».

وذكر المراكشي في الاعلام أن الدمتمی شرح ألفية ابن مالك عدة شروح، منها ما هو في أربع مجلدات ينافح فيها عن الناظم ويجيب عنه ما تعقبه عليه الشراح والمُحشّون. توجد نسخة من هذه الشروح في خزانة تمكروت تحت رقم 3159.

41. «الموهبات المنانية في اختصار الحواشي البنانية» :
وهو اختصار حواشي الشيخ بناني على شرح مختصر خليل في الفقه.

42. «نجاة الموحدين في توحيد مبدع ووارث كل المكونين والمنقذين» :
شرح صغرى السنوسي. يوجد مخطوط منه بخزانة ابن يوسف بمراكش تحت رقم 731 من تحبیس مولاي عبد الحفیظ العلوي على جامع ابن يوسف، على ما ذكره الأستاذ أحمد التوفيق.

43. «النصيحة التامة، للخليقة العامة» :
في الوعظ. طبعت بمصر عام 1299 هـ.

44. «نظم شرحه لجمع الجوامع» :

45. «نفع قوت المغتذي على جامع الترمذي» :
لعله حاشية على شرح السيوطي لجامع الترمذي، مطبوع بمصر عام 1298 هـ في 156 صفحة.

46. «نور مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجه» :
حاشية على مصباح السيوطي في الحديث. طبع بمصر، المطبعة الوهبة عام 1299 هـ.

47. «وشي الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج» :
سيأتي الكلام عنه قريبا.

قال الأستاذ أحمد التوفيق (55) عقب تسجيله لهذه المؤلفات :
«وللجموعوي شروح مختلفة لم نقف لها على عناوين خاصة» وذكر منها :

1. «شرح جمع الجوامع».
- وقال وقف عليه الكتاني.
2. «شرح الخزرجية ومحاذيها».
3. «شرح الزقاقية».
4. «شرح قصيدة رائية في محاورات صوفية» :
يوجد مخطوط منه بخزانة تمكروت تحت رقم 3139 بخط المؤلف.
5. شرح كتابه : «محاذي المختصر» :
وقف عليه الكتاني في سفرين ضخمين.
6. «شرح المفردات اللغوية الواردة في ديوانه» :
يوجد بخط المؤلف في تمكروت تحت رقم 1293.
7. «شرح على الرسالة القيروانية» :
مخطوط بخط المؤلف في خزانة تمكروت تحت رقم 3169.
8. «شرحان على ابن عاشر بالعربية» : وقف عليها الكتاني.
9. «شرحان على ابن عاشر بالبربرية».

قراءة تأملية لرسم مصنفات الدمنتي :

تختلف القراءات من قاريء لآخر، وتختلف بذلك الاستنتاجات المترتبة على كل قراءة، إلا أن القراءات التأملية لللائحة مؤلفات الدمنتي تكاد تكون واحدة، وتنتهي بملاحظات موحدة يفرضها واقع الحال، وهي كالتالي :

1. تداخل مضامين مكونات هذه اللائحة، وتساكن مختلف الفنون فيها، العقلية منها والنقلية مما يسمح بالحكم على صاحبها بأنه ذو شخصية علمية ثابتة جامعة، يشغل فيها كل علم حيزا مستقلا رحبا...
2. تجمع كل متروكات المؤلف المخطوطة في خزانة تمكروت الناصرية أشكال العلائق الروحية التي تربطه بفضاءات زاوية تمكروت وأعمدتها وأقطابها ومريديها، وكأن علمه كله وقف عليها...

3. كل مصنفات القطب الصالح المجتمعة في خزانة تمكروت مكتوبة بيده، ولا تكاد تجد له مخطوطا بخط غيره، وكأنها لم ترو عنه في المجالس رواية قراءة، ولم تقيد عنه إلقاء ولا إملاء.
4. أكثر أسفاره في الحديث مطبوع، ودونها مخطوط ينتظر، وهذه واقعة تفضح «جور» الدمتي في المعارف، وتكشف ميلا شديدا نحو خدمة صنف منها بالطبع والنشر.
5. جميع ما طبع من مصنفاة تم على نفقته الخاصة، دون إعانة من جهة علمية أو سياسية، في الديار المصرية، بعيدا عن أهله ووطنه وأصوله ومصادره، ويترك للقاريء المجال لتقدير ما تجشمه هذا الولي الزاهد الصالح من أجل نشر كتبه وتوزيعها بالجمان على أهل العلم.
6. كان بإمكانه أن يطبع أغلب كتبه بالمطابع الحجرية الخاصة المنتشرة بفاس، في عصره، غير أنه لم يفعل، فما يكون السبب ؟..

المبحث الرابع : تلامذة الامام

جرت العادة في النظام التعليمي القديم أن يتصدى المرء للتدريس عقب تمكنه من كليات الفنون التي تلقاها، دون انتظار الاحاطة الشاملة لجميع الجزئيات والتفريعات، وكثيرا ما تناط بالطالب مهمة التلقين بحضور شيخه تكوينا له على الصنعة، حتى إذا أبدى استحقاق الكرسي، تولاه نيابة عن شيخه، أو رسميا بتعيين.

وأثناء الأشغال التربوية يقوم بالتصنيف موضحا وشارحا ومعلقا وملخصا.. إلا أن المترجم خرج عن العادة، فبدأ بالتأليف، وانتهى بالتدريس. قال ابن الموقت : «وكان مشغولا بالتأليف قبل تصدده للتدريس» (56).

وهو بهذا محق، إذ لا يصلح للتدريس النافع إلا من طار في فضاءات العلم كل مطار، وكشف عن أسرار المعارف وحقائقها ودقائقها... واستفاد من كثرة البحث والاحتكاك، وعانى من مجابهة الغوامض والمعضلات. بعد هذا فقط تكون العملية التعليمية ذات مردودية علمية عاجلة، وفي الوقت ذاته متجردة من الحقن والملل اللذين يجعلان الحصصة التعليمية حملا ثقيلا على الشيخ والطلبة على السواء.

(56) السعادة الأبدية. ص 157 ط : الحجرية.

فصحة المناهج تجعل للتعليم والتعلم مادة لا تقنع — حتى بالوافر منها — النفوس، وبهذا وحده يمكن تفسير استمرارية الدمнти — رحمه الله — على التدريس فترات طويلة دون كلل، وتلاميذته على التلقي دون ملل.

بعد أن حصل الامام من العلوم على طائل، وحاز من دقائقها على ما يسكت به الأواخر، ويفاخر به الأوائل، جلس للتدريس بمسجد ابن يوسف بمراكش بقرب باب القسارية، فرحل إليه عدد كثير من طلبة العلم، وصفهم ابن الموقت (57) بالجلم الغفير، أذكر منهم :

1. أحمد بن محمد الالياسي السوسي : المتوفى عام 1370 هـ. ذكر العلامة المختار السوسي (58) أن هذا الطالب أم فاسا لاستكمال تكوينه العلمي، بعد أن استنزف شيوخ الصقع السوسي، بظهير من السلطان مولاي الحسن. وبمروره بمراكش، ونزوله على الشيخ، أنساه هذا الأخير بعلمه ومناهجه وأخلاقه فاسا فلازمه كالظل، يتلقف من فيه الدرر والجواهر، إلى أن كمل فعاد إلى سوس بعلم الدمنتي، وقد حكى هذا الطالب عن منهج الشيخ في التدريس ما سنذكره في مبحث خاص.

2. أبو محمد عبد القادر بن القاسم الدكالي الركراكي (59) : الفقيه المحدث، المدقق الضابط المتقن، شيخ ابن الموقت المراكشي، المولود سنة 1273 هـ، وكان على قيد الحياة يوم ألف ابن الموقت سعادته الأبدية.

3. أبو عبد الله سيدي محمد بن مبارك (60) : الملقب بالغول. حلاه ابن الموقت بقوله : «الفقيه المشارك، ذو الملكة والاتساع، المفتي المحقق الحافظ لمتون الشيخ خليل، العارف بمنظومه ومفهومه، ومقيده ومطلقه، وظاهره ومؤوله». وحدد ولادته في سنة أربعة وتسعين ومائتين وألف.

4. أبو عبد الله محمد المكي بن محمد الرباطي (61) : قال مولاي عبد الحفيظ الفاسي عندما ذكر شيوخه في السماع والاجازة : «منهم العلامة الصالح أبو الحسن علي بن سليمان البجمعوي الدمناتي».

(57) الصفحة 155 / السعادة الأبدية. الطبعة الحجرية. فرغ المؤلف من تأليفها عام 1335 هـ.

(58) ذكره المختار السوسي أثناء ترجمته للأسرة الالياسية العلمية الماسية. ت 1370 هـ. ص 77 ج 18 المعسول.

(59) الصفحة 155 من «السعادة الأبدية».

(60) نفس المصدر.

(61) الصفحة 74 من كتابه : معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة. والمدهش المطرب. ج 1 ط : 1 سنة 1350 هـ.

الطبعة الوطنية لصاحبها عباس التناي — الرباط.

5. محمد بن علي بن عبد السلام الوزاني : الفاسي الدار، الشيخ الفقيه الصالح الذاكر كبير الطائفة الوزانية بفاس.

قال العلامة مولاي عبد الحفيظ الفاسي أثناء ترجمته له : «... ولقي بمراكش العلامة الصالح الفقيه المحدث الصوفي أبا الحسن علي بن سليمان البجمعوي الدمناتي، صاحب الحواشي على الكتب الستة والفهرسة المطبوعة، وغيرها، فأجازه عامة (62)».

المبحث الخامس : منهجه في التدريس

نحا الدمناتي في التدريس منحى التكوين السريع، يسره له التحصيل المكين والخبرة الواسعة في مجال التأليف، فكان — رحمه الله — يركز على الحفظ والتفهم والمباحثة، ويتحاشى الاسترسال في سرد الأقوال والخلافات والمباحكات، وما يعرقل المسيرة التعليمية ويناقض المنهج السريع المتبع. فكان يكتفي بتحقيق المتن، وحل الألفاظ، وفك الألغاز، وكشف الغوامض، ثم يحيل المستزيد على الأمهات في الشأن. وبهذا التركيز الشديد استطاع أن يدرس عدة مؤلفات في أوقات وجيزة تحمل على العجب والاستغراب.

«كان يختم متن الشيخ خليل تدريسا وتفهيما في أربعين يوما. وأما الألفية وغيرها فكان يختمها في نحو الأسبوع. ومن المتون ما كان يختمه في يوم واحد» (63).

وهذا منهج عرف به، ولم يشاركه فيه أحد، قال ابن الموقت : «وما سمعنا بمثل هذا لآخر في وقته، وحاله في هذا عجيب» (64) وبهذا المنهج المدقق المركز السريع استطاع أن يكون علماء في زمن يسير، فهذا الماسي كان قاصدا فاسا للطلب، فمر به، واحتك بمنهجه، فنسي الرحلة وأناخ بمراكش. وفي ظرف سنة واحدة تم له ما لم يتم له في فاس إلا في سنوات. قال العلامة المختار السوسي : «.. ثم اتصل بالعلامة الحاج علي بن سليمان الدمنتي، صاحب المؤلفات المشهورة، فانس فيه ما أنساه (فاسا) فلأزمه سنة تامة. فأخذ عنه فيها مسرودات في الألفية، وكان يتمها في ستة أيام، ومن منظومة ابن عاصم يتمها أيضا في مثل ذلك، ويتم

(62) الصفحة 71 ج 1 من معجم شيوخه المطبوع بمطبعة عباس التتاني سنة 1350 هـ.

(63) الصفحة 154 من «السعادة الأبدية» لابن الموقت المراكشي

(64) نفس المصدر

المختصر في شهور قليلة، وقد درسه أكثر من أربعين مرة في حياته (...) فكان كل من له حافظة كمترجمنا يحصل مراده من عنده بسرعة.» (65).

ومنهجه هذا يشبه في بعض مكوناته بمنهج أصهاره الناصريين في زاوية تمكروت، فقد كان الشيخ سيدي محمد بن ناصر⁽⁶⁶⁾ رضي الله عنه في درس العلم يقتصر على كلام المصنف وما يتعلق به من كلام الشارح، ويقول هذا أنفع للمبتدئين، أما الاكثار في الانتقال ففيه ضرر عليهم، وسار على نفس الطريقة تلميذه أبو علي اليوسي، قال في فهرسته⁽⁶⁷⁾ : «حقيقة الاقراء هي تصحيح المتن، وحل المشكل، والزيادة على ذلك ضررها أكبر من نفعها، ولا بد أن يندرج فيما ذكر من تصحيح المتن وحل المشكل والتنبيه على النقص أو الحشو أو توجيه ما يحتاج إلى التوجيه ونحو ذلك». والاختصار على ما ذكره اليوسي في العملية التعليمية أنفع بكثير للطلبة في جميع مراحل التدريس، إذا أضيفت له طرق المباحثة والمعارضة، وعلى المستزيدين الرجوع إلى الأصول لتوسيع المعارف والفضاءات.

فالشيخ لا يعطي كل شيء، وإذا حاول أن يعطي كل شيء ضيع كل شيء... ومن هذه الاضاعة خاف الدمناتي وقبله اليوسي وسائر المنهجيين، على أن محاسن البجمعوي في التدريس لا تقف عند حد التركيز فقط، ولكنها تتخطاه لتشمل مسائل توجيهية وتربوية من الأهمية بمكان، منها أنه يوصي المتقدمين من طلبته بالاختصار على المراجعة والمطالعة من بطون الكتب للتوسع والتفسيح ولذلك لما أراد الماسي أن يودعه أمره الشيخ بالرجوع إلى بلده، والاكتفاء بالمراجعة وقال له : «ان الكتاب آمن غلطاً، وأسهل تناولا لمثلك، فدع فاسا وارجع إلى بلدك» وذلك ما حصل فكان خيراً.

وقد ظهر لك الآن أن مميزات المنهج الدمناتي التعليمي كثيرة، ذكرت منها شدة التركيز والتوجيه التربوي، وبقيت منقبة أخرى، رأيت من الواجب ذكرها، وهي قوة صبره على التلقين ما لم يحفظ لغيره من الأنداد والاقران، قال ابن الموقت : «لا يكل من التعليم حتى قيل أنه شرب من ماء زمزم بنية ذلك لما رؤي من صبره على ذلك، وذلك أنه كان يجلس في درسه من الشروق إلى الغروب ولا يقوم منه إلا للصلاة، فإذا صلى مع الجماعة رجع لتدريسه» (68).

(65) الصفحة 77 ج 18 من المعسول.

(66) ص 159/ج 1 «طلعة المشتري في النسب الجعفري» للناصري. الطبعة الحجرية

(67) نقلاً عن المصدر أعلاه

(68) السعادة الأبدية ص 154.

وهذا القول يصير الدمناتي الأستاذ النموذجي الذي تحلم الطرق الحديثة بتكوينه ولم تفلح في الغالب، يحب عمله ويتفانى في أداء واجبه العلمي، تاركا الدنيا ومتعها من أجله، ناسيا نفسه وكل غال ونفيس لغاية الغالي والأنفس، المتحقق من قول القائل :

إن لله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطننا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

وأي الأعمال أصلح من نشر العلم النافع بنية صادقة، واستماتة مثالية ؟

المبحث السادس : أخلاقه وأقوال العلماء فيه

... كل يجري خلف ضالته، فمن كانت ضالته الدنيا جرى خلفها وسخر علمه ومعارفه وجميع آلياته للامساك بها، ومن كانت ضالته الأخرى كان الأمر نفسه. نفس الوسائل مع تغيير الطريقة والمنهج. فمنهج العالم الراغب في الحطيم التزلف والتملق، والتدلل والتصنع، والتحليل على العلم لارضاء الخلق، والشره والتكبر والتبخر في السلوك... وطريقة العارف بالله الزهد والتواضع وعلو النفس...، وكان الطريق الثاني مهيع إمامنا للآخرة، أجم النفس بالقناعة فانصاعت له منكسرة مذلولة، يحكمها ولا تحكمه، ويقودها ولا تقوده، ويشرد بها ولا تشرد به. اتخذ الزهادة شعارا ودثارا، ما أبعدته عن المناصب الدنيوية وجنون الاقتراب من ذوي الأمر والايالة، غايته نشر العلم على طريقة السلف، طارحا كل ما لا يخدم هذه القضية النبيلة، نابذا إياه كائن ما كان...

وصفه عارفوه (69) بأنه الزاهد، الورع، الصالح، الناسك. وهم صادقون في هذه الأوصاف، بينات كثيرة منها : حبس النفس على التدريس طيلة أيام الأسبوع دون الانصراف عنه إلى أشغال دنيوية موازية، كالقضاء وغيره من المناصب التي تهفو لها النفوس، وتميل نحوها الأعناق.

« كان يجلس في درسه من الشروق إلى الغروب، ولا يقوم إلا للصلاة، فإذا صلى مع الجماعة رجع لتدريسه » (70).

(69) منهم العلامة الكتاني في فهرس الفهارس ج 1 ص 176 الطبعة الثانية سنة 1402 هـ.

(70) منهم العلامة المراكشي في الاعلام : ج 9 ص 255 إلى 260 الطبعة الملكية 1980 م.

هذا حاله، لا ينقطع عن التدريس لعمل خارجي، رسميا كان أو شخصيا، حتى الطعام الذي تقوى به العظام، كان يكتفي باليسير منه، من جنس مطعومات الفقراء وذوي الاملاق، قال ابن الموقت : «كان جل أكله مدة حياته شيئا يسيرا من الخبز بما تيسر من خفيف الادام والبول». (71) وأغرب من هذا كله أنه كان رضي الله عنه يفطر في رمضان بجرجعات من الماء ليعود بسرعة إلى مجلسه العلمي.

وسيرته في الطعام والتغذية هي نفسها في النوم والراحة، «كان لا ينام من الليل إلا قليلا» (72) مرهقا نفسه في الباقي بتصحيح المتون وتحليلها وشرحها وتوجيه حقائقها، وتدقيقها.

فإذا أضيف إلى الزهادة التواضع، وهو على كل حال من مقتضياتها، كان الكمال وصح المقال.

تواضع الامام لله فرفعه، وانكسر لطلبته فأجلوه، وأحرق نفسه من أجل تكوينهم وتعليمهم فقدره، وأجازهم... وأجاز كل من استجازه دون حسد ولا ضن، بل كان — رضي الله عنه — يسافر إلى المشرق لطبع تواليفه على نفقته وتوزيعها بالجان (73) على أهل العلم، رغبة في نشره. إنها القمة في السلوك الحميد والأخلاق الفاضلة.

على أنني، وأنا أبحث عن أقوال العلماء في الشيخ، لم يعمني الرضا، فاجتهدت لأجد منتقدا ينتقد سلوكه، وينتقص شأنه، فلم أجد إلا قصيدة نظمها أبو محمد التمارتي منتصرا للافراني في خلاف وقع بين هذا الأخير والماسي المتقدم ذكره تلميذ البوجمعوي في مسألة صوفية. فالأول أحمدى الطريقة، والثاني ناصرها على غرار شيخة الدمنتي، متعصبا لها ناقصا من شأن الأخرى، متسلحا في ذلك بأقوال شيخه ومواقفه. فنظم التمارتي قصيدة يرفع بها من شأن الطريقة الأحمدية، واصفا الدمنتي بالشيطن، وهو ما لم يفعله إمامنا تجاه أحد، مخالفا أو موافقا. قال أبو محمد التمارتي في قصيدته (74) :

(71) منهم العلامة ابن الموقت في السعادة الأبدية.. ص 154 — 155. الطبعة الحجرية وغيرهم.

(72) السعادة الأبدية ص 154.

(73) الاعلام بمن حل بمراكش وأغमत من الاعلام. للمراكشي. ج 9 ص 255. المطبعة م. الرباط 1980 م.

(74) القصيدة أثبتتها كاملة العلامة المختار السوسي في المعسول ج 81/18.

أتم سلام طيب النشر أذكاه على من سما من شاهق المجد أعلاه
 على أحمد الصدر المبجل من غدا اماما وفي ثغر لـ «ماسة» مغناه
 وبعد فقد وافى نظام تفتحت أزاهره إذ صوب فكرك أرواه
 يسائل عن أشياء تزعم أنها أتتك بوجه جانب الحق يأباه
 رماك بها شيطان دمنة إذ أتى . إليك وكم قلب على الشر أغواه
 يحرف من قول المشايخ ضلّة عن القصد إيهاما وجهلا بمعناه
 فلا تغتبر أن ساعدتك عناية بأهل ضلال في فلاة الهوى تاهوا
 وسلم لأرباب الكمال فمن غدا ليؤذيم يوما يحاربه الله

يظهر من منطوق هذه الآيات أن واضعها سيء الأدب مع الشيوخ
 والعلماء، فوصف عالم بالشيطنة والضلال، وقذفه بالجهالة والغبي، كل ذلك لا
 ينبع من قلب طاهر نقي، إذ الخلاف في المذهب أو الفكر أو في الطريقة
 المسلوكة، لا يسوغ بحال شتم الآخرين والتشهير بهم. على أن الخلاف وقع بين
 الحسين الافراني والماسي، فما دخل الشيخ الدمنتي فيه ؟ وما دخل الشاعر
 المسخر لشم من لم يره ؟

على أن الدمنتي، وإن كان ناصري الطريقة، لم أعثر له على كلام قبيح في
 سائر الطرق الصوفية، اللهم إلا رسالته القيمة التي وجهها لعلماء الاسلام للنظر
 في أمر الطرق والمذاهب من أجل توحيدها (75).

هذا وقد خصص الأستاذ المختار السوسي في «المعسول» مبحثا للخلاف
 الواقع بين تلميذ الدمنتي والشيخ الافراني، جاء فيه : «كان المترجم صاحب
 الدمناقي، وهو مربي تربية أهل تمكروت، فكان يجول في سوس وفي غيره، فكما
 أخذ عن أبي العباس التمجدي إجازة كما في فهرسته نزل في ايليغ على الرئيس
 سيدي الحسين بن هاشم فاجتمع هناك بالشيخ سيدي الحاج الحسين الافراني،
 وقد حكى لنا شيخنا سيدي الطاهر ما يدل على أن سيدي الحاج الحسين الافراني
 لم يعجبه حال الدمناقي إذ ذاك، ثم إنه درس في تمكروت ما شاء الله وتزوج فيها
 أخت سيدي محمد بن أبي بكر، ثم استقر في الحمراء. ومن كون الدمنتي ناصري
 الطريقة ينكر على غيرها من الطرق، فسرى ذلك إلى المترجم فصار يصرح
 بذلك..» (76)

(75) تقدم الكلام عنها.

(76) المعسول ج 18 ص 82.

والحاصل أني لم أجد غير الافراني وشاعره ينتقص من قدر العلامة علي بن سليمان الدمنتي، بل العكس هو الواقع، أهل الفضل معترفون له بالفضل والفضيلة، ولا يضره كلام من لا يعقل ولا يتحفظ.

وعلى الرغم من منزلة البجمعوي العلمية والخلقية، وشفوفه وعالمية فكره وثقافته، وممارسته وتجربته، وكثرة احتكاكه بأعلام زمنه، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم... على الرغم من هذا كله لم يكن له نشاط علمي رسمي موجه، فقد كانت الجلسات الحديثة تعقد في قصر السلطان الحسن الأول بمراكش وغيره (77)، ولم يصح عندي أنه كان يحضرها ولا شارك فيها، مع أنه أولى الناس بتصدرها، بعد السلطان. زيادة على أن المغرب في عصره عرف هزات متعددة خلفت أزمة حادة في نفوس المغاربة بصفة عامة، والوعاة منهم بصفة خاصة. منها : احتلال الجزائر عام 1246 هـ، وانهزام الجيش المغربي في معركة ايسلي عام 1260 هـ، واحتلال مدينة تطوان (78) سنة 1820 م إلى ما صاحب هذه الخطوب من مجاعات (79) وأمراض وفتن، ودعوات إلى تغيير نظم الجيش والادارة المغربية (80)... إلخ، كل هذا وأشد منه حدث. والمترجم بجامع ابن يوسف، لا يدري موقفه إزاء النوازل والواقعات، ولم أعثر له على مكتوب محلل، أو على الأقل واصل، وإن كان أغلب علماء عصره متفاعلين مع المستجدات تحليلا وتصحيحا وتنقيبا عن الحلول.

وقد اعتبر الأستاذ أحمد التوفيق (81) رسالة الدمنتي إلى آفاق الاسلام لتنظيم مؤتمر عام لعلماء الأمة لأجل توحيد الطرق والمذاهب قطعا للنزاع وكثرة الجدل والاختلاف، دليلا على مشاركة المترجم في هموم عصره.

غير أن هذه «المشاركة» وحدها لا تقنعنا إزاء عظمة الأهوال وخطورة الأحوال. فقد كان بإمكان عالم العلماء أن يوجه ويصحح ويسخر علمه كله للأزمة العامة التي حلت بالبلد ماديا ومعنويا، حتى بعض النوازل المفتقرة إلى

(77) الانحاف لابن زيدان. ج / ص 143 الطبعة الأولى 1349 هـ/1930. والاستقصاء لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري ج 9/133 دار الكتاب. 1956 م.

(78) أخبار هذه الواقعة مفصلة في عدة مصادر تاريخية منها : الاستقصاء ج 84/9 وما بعدها، وتاريخ تطوان للعلامة داود ج 4 وغيرهما.

(79) الاستقصاء ج 9/164 - 165.

(80) مظاهر يقظة المغرب الحديث للعلامة المنوني. ج 1 الصفحات الطبعة الأولى 1973 الرباط

(81) انظر النهضة والتراكم. الصفحات من 257 إلى 270.

أحكام فقهية كالانتجار في الأعشاب المرقدة (82) والمفسدة، وتسويق الحبوب والانعام إلى الكفار عن طريق البيع (83) لن تجد للامام قولاً فقهياً فيها، وإنما استفتى السلطان الحسن الأول في شأنها علماء فاس — والدمنتي في مراکش محل السلطان، وهو أولى بالجواب، أو على الأقل بالمشاركة فيه — وموقف البجمعوي هذا تجاه ما ذكر لا يمكن تفسيره إلا بناء على معطيات موضوعية لم أتوفر عليها في الحال. مما يجعل القضية عندي معلقة إلى حين.

(82) انظر الاستقصاء ج 9 ص 192 — 193.

(83) المصدر نفسه. ج 9 ص 182 وما بعدها.

إسهامات العلامة الدميتي في الدراسات الحديثة

الفصل الأول : مروياته الحديثة

تقدم الكلام عن موسوعة المترجم، وعن فضائاته العلمية الرحبة التي تزامت فيها العلوم، وتشابكت فيها الفنون، غير أن علم الحديث يشغل حيزا عظيما في فضائاته وعوالمه. ومن أجله كانت رحلاته المتعددة إلى المشرق. وبذلك حصلت له روايات متعددة لعدد جم من تواليف السنة، بأسانيد ثابتة متصلة منه نزولا إلى أصحاب التواليف علوا. وهذا رسم لمروياته الحديثة محذوفة الأسانيد اختصارا، استقيته من فهرس أسانيده، وبأمله يظهر للناظر صدق ما قاله فيه ابن الموقت في «السعادة» (84) ..

1. الموطأ : (85) رواه عاليا عن طريق أعلاها عن العلامة أحمد دحلان.
2. صحيح البخاري : رواه من طرق أعلاها عن العلامة أحمد دحلان.
3. صحيح مسلم : رواه من طرق أعلاها عن العلامة أحمد دحلان.
4. سنن أبي داود : رواها من طرق أعلاها عن العلامة أحمد التمجدي السوسي.
5. جامع الترمذي : رواه من طرق أعلاها عن العلامة أحمد التمجدي السوسي.
6. صُغرى الامام النسائي : رواه من طرق أعلاها عن العلامة أحمد التمجدي السوسي.
7. سنن أبي عبد الله ابن ماجه : رواها من طرق أعلاها طريق أحمد دحلان.
8. مسند الامام أبي حنيفة : رواه بالطريق السوسي (86).

(84) قال عنه : «كان كلفا بالرواية رحل في طلبها، وتبحر في المعارف بسببها» السعادة الأبدية ص 154.

(85) فائدة : أغلب التواليف الواردة في هذه اللائحة معرف به في الرسالة المستطرفة للعلامة : محمد بن جعفر الكتاني.

(86) المقصود بالطريق السوسي طريق أحمد التمجدي عن الأجي عن الحضيكي.

9. مسند الامام الشافعي : رواه بالطريق المكي (87).
10. مسند الامام أحمد : رواه أيضا بالطريق المكي.
11. الشفا للقاضي عياض : رواه أيضا بالطريق المكي.
12. شمائل الترمذي : رواها أيضا بالطريق المكي.
13. جامعا الجلال السيوطي : رواهما أيضا بالطريق المكي.
14. الأربعون النووية : رواها من جهات متعددة منها جهة الأمير.
15. المواهب اللدنية بسائر مؤلفات القسطلاني : من جهات متعددة منها جهة الأمير.
16. شرح معاني الآثار للطحاوي : رواه عن الشيخ المكي.
17. مسند الهداية للبرهان المرغيناني : رواه عن الشيخ المكي.
18. مسند الدرامي : رواه من جهات متعددة منها الجهة السوسية.
19. مسند الطيالسي : رواه من جهات متعددة أعلاها السوسية.
20. الأدب المفرد للبخاري : رواه بالطريق المكي إلى ابن حجر.
21. سيرة ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام : رواها بالطريق المكي وغيرها.
22. المعجم الكبير للطبراني : رواه بالاميرية وكذا بالهلالية (88).
23. المعجم الوسيط للطبراني : رواه بالاميرية وكذا بالهلالية.
24. المعجم الصغير للطبراني : بالسند السابق إلى أبي نعيم عن الطبراني.
25. مسند الحافظ أبي يعلى أحمد بن علي التميمي، رواه بالسند المتقدم إلى الفخر بن البخاري.
26. سنن أبي بكر أحمد بن عمر بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني : رواه بالاميرية.
27. صحيح ابن حبان : رواه بالسند السابق إلى الدمياطي.
28. مسند الدارقطني : رواه بالسند السابق إلى الدارقطني.
29. مستدرک الحاكم : بالسند السابق إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري.
30. عمل اليوم والليلة لابن السني : رواه بطريق السلفي إلى صاحبه.
31. مسند البزار رواه بالاميرية.

(87) المقصود بالطريق المكي طريق أحمد دحلان، ويطلق على هذا الطريق أحيانا الأميرية لوجود الأمير فيها بعد العلامة الدمياطي.

(88) والمراد بالهلالية الرواية التي يوجد في سندها الشيخ عبد العزيز الهاللي.

32. حلية أبي نعيم والمستخرج عن صحيح مسلم له : رواهما بالاميرية.
33. مسند القضاء : رواه بالاميرية.
34. مسند الفردوسي : رواه عن الحافظ أبي شجاع شبرويه إلى أبي منصور شهر دار.
35. سنن البيهقي : رواه بالاميرية.
36. منتقى ابن الجارود : رواه بالاميرية.
37. مسند ابن أبي شيبة : رواه بها من طريق ابن الفرات إلى أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة.
38. مسند أبي عوانة : بها من طريق السلفي.
39. سنن سعيد بن منصور : رواه بها عن طريق السلفي.
40. صحيح ابن خزيمة : بها عن طريق ابن البخاري إلى المؤلف.
41. تواليف البغوي : شرح السنة والمصايح، بالسند السابق.
42. مسند الحرث بن أبي أسامة البغدادي : بطريق الفخر إلى المصنف.
43. تواليف ابن عساكر : بها.
44. كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك : رواه بالسند السابق بطريق أبي علي النسائي.
45. تأليف الخطيب البغدادي : بها بطريق الصدفي إلى الخطيب.
46. نوادر الأصول : بها بطريق الصدفي إلى ابن حجر إلى المؤلف.
47. مسند ابن راهويه : بها إلى ابن حجر إلى راهويه.
48. مسند بقي بن مخلد : بها بطريق عياض إلى بقي.
49. تاريخ ابن معين : بها بالسند إلى ابن الاعرابي عن ابن عباس الدوري عن يحيى.
50. مسند الحميدي : بها بطريق الغساني إلى الحميدي.
51. تأليف الصاغاني : من طرق كالهلالية والاميرية.
52. الترغيب والترهيب للمنذري : رواه بالسند لصاحب المنح بطريق التنوخي.
53. تأليف عبد الحق الاشيلي : بها بطريق ابن خليل.
54. مشكاة الأنوار لابن عربي : من طرق أعلاها السوسية.
55. مغازي الواقدي : رواها بالاميرية بطريق الصدفي إلى المؤلف.
56. الروض الأنف للسهيلي : بالهلالية والاميرية.

57. ألفية العراقي بسائر مؤلفاته : بالاميرية.

58. سيرة ابن سيد الناس : بالهلالية والاميرية كلاهما بطريق ابن حجر.

59. السيرة الحلبية والشامية : بالاميرية بطريق الشيخ اللقاني عن مؤلفها.

60. جامع الأصول لابن الأثير، بالاميرية.

أما المسلسلات فقد روى المسلسل بالرحمة من طرق متعددة، وذكر منها السوسية بطرقها الكثيرة، والهلالية والاميرية. وروى مسلسلات كثيرة بطرق مختلفة تدور كلها حول السوسية والاميرية والهلالية.

ومن خلال هذا الرسم التقريبي لمرويات الدمتي الحديثية يتحقق لنا صدق ما وصف به من كونه راوية عصره، وحافظ زمانه، لم يكتف برواية المصنفات المشهورة، بل وسع الدائرة بالرحلات والتنقلات لتشمل روايته حتى المؤلفات السنية النادرة، والقليلة التداول، والتي لم يعرف أسماءها ومحتوياتها إلا الاعلام الحفاظ وكبار المحدثين. وقد أعانت سعة الرواية مترجمنا في اكتساب ملكة التصرف في فنون الحديث، تصحيحا وتضعيفا وترجيحا وتدريسا وتصنيفا، فكان طبيعيا أن يرحل إليه ذوو الهمم للرواية عنه والقراءة عليه، فكان «فاسا» لمن لم يرها، والمشرق لمن لم يرحل إليه.

الفصل الثاني : إسهاماته في الدراسات الحديثية تدريسا

لم يتصد العلامة علي بن سليمان لتدريس الحديث النبوي الشريف حتى صحت رواياته، وتقوت أصوله، وعلت أسانيده، وتعددت طرقه، وقوي حفظه، وسلمت مناهجه.. فكان هذا التدريس منه فيضا حاصلا عن الامتلاء..

كان للمترجم شغف عجيب بتدريس مصنفات الحديث في جامع ابن يوسف بمراكش لا سيما الكتب الستة منها، لا يكل منه ولا يمل، مساهمة منه في نشر الوعي الحديثي بين الطلبة، ربطا للحاضر بماضي أحمد وابن معين وغيرهما من أعلام السنة. وقل من الشيوخ من لم تشغله الفروع والمختصرات والمنظومات عن النظر في دقائق الأسانيد ومسائلها... قال المراكشي أثناء ترجمته له في أعلامه (89) : «استوطن رحمه الله مراكش وأقرأ بها الكتب الستة» قراءة حفظ

وفهم ومذاكرة، يسرد البخاري بلفظه ونصوص الأئمة في كل حديث، تنويراً للمبهمات، وتوضيحاً للمغلقات» قال تلميذه أحمد بن محمد الماسي (90) : «كنت يوماً أذكره في الحديث : من قتل قتيلاً فله سلبه، فصار يسرد علي ما حول الحديث من أقوال الأئمة، وقد كان ذا حافظة واعية، يستحضر من أقوال الأئمة ونصوصهم ما يبهـر به السامعين».

وطبيعي أن يبهـر السامعين بلطائف تعليقاته، وغرائب تحليلاته، وسهولة تنقلاته في مضمار الحديث، دون عياء ولا تكلف، ولو امتدت به الحصـة الدراسية يوماً كاملاً. وصف المراكشي درسه الحديثي بقوله : «... وكان يـجـيز الطـلبة وقتـما قرأ بهم، ويقول لهم : لا تحتاجون إلى غيري بعد إن شاء الله، وأذنت لكم فيما قرأتموه علي وغيره. وكان يسرد البخاري بلفظه، يقرأه كله في شعبان ورمضان، يجلس من الصباح إلى الزوال، ثم يقول للطلبة إذهبوا لتتوضأوا وحين يؤذن الظهر، فبمجرد ما يسلم من الصلاة يرجع للقراءة، ويقول : العلم مقدم على غيره» (91).

ويستمر رحمه الله على هذه الحال إلى الغروب، فيقوم ويفطر بجـرعات ماء في خـصة في الجامع، ويقول لطلـبته فضل التـقـديم للـافـطار... كل شيء عنده وفق السنة، على غرار شيخه الوليين الصالحين أبي العباس أحمد التـمـجـدشـتي، وأبي بكر الناصري.

وجماع القول في المسألة، فإن حلقات الدمتي الحديثية بجامع ابن يوسف ساهمت في إنعاش الحركة الحديثية بالمغرب في أواخر القرن الثالث عشر، وأوائل القرن الرابع عشر الهجريين.

الفصل الثالث : إسهامات الإمام في الدراسات الحديثية تأليفاً

لا شك أن الكتابة هي التي تجعل الأحاديث ثابتة، وتصيرها نصوصاً مؤمنة مضمونة الديمومة النسبية، بفضل طابع الرقم الراسخ على الورق، وبدونها تكون الملفوظات شفوية، تذهب بذهاب أصحابها، وحتى إن تم نقلها اعتباراً لقيمتها الحكمية والعلمية لا بالكتابة، ولكن شفويًا، فهي معرضة للتحريف والتبديل عن قصد أو بفعل النسيان.

(90) المسـول ج 18 ص 77.

(91) الجزء 9 ص 255 إلى 260.

من هنا اقتنع العلماء بجدوى تثبيت كلامهم في مجال المعرفة بواسطة الكتابة حتى لا يضيع.

ومن خلال المتروكات المكتوبة تدرى أقدار أصحابها، وتعرف درجاتهم العلمية في المجالات التي كتبوا فيها، وأنى لنا أن نتحقق من مصادقية الألقاب العظيمة التي حلى بها نفر من خيرة العلماء مترجمنا لو لم يثبت لنا كلامه في فنون الحديث بالكتابة.

فالدمنتي واع بأهمية التقييد والنشر والتأليف، فسعى مشكورا لتثبيت أقواله ومعارفه بالبراع والطروس، حتى لا يقتصر نفعه على معاصريه والآخذين عنه بالسماع فقط، وبتواليه يكون قد ساهم في تنشيط الدراسات الحديثة في المغرب في أواخر القرن الثالث عشر، وأوائل الرابع عشر، وهكذا ترك لنا المترجم مؤلفات قيمة في الحديث ورد ذكرها عرضا في فصل سابق ضمن سياق مؤلفاته العامة، وأعيد ذكرها هنا منفردة على ما سواها حتى يسهل تأملها، والنظر والاعتبار فيها، ودونها :

1. أجلى مساند على الرحمان في أعلى أسانيد علي بن سليمان :

وهذا عنوان فهرسته، ذكر فيه أسانيده في الحديث والتفسير، وطبعه على نفقته بالمطبعة الوهبية في مصر عام 1298 هـ. جاء في آخره بقلم أحد علماء مصر : «بعد حمد الله والصلاة والسلام على الرحمة المهداة وعلى آله السادة وصحبه الذين هم لقواعد الدين سادة، فقد عظمت منة الله علينا بما منه طبع هذا الكتاب الجليل القيم، فجمل فضله عن التفضيل المسمى : «أجلى مساند على الرحمان في أسانيد علي بن سليمان»، الآتي على أسانيد السادة الأثبات الذين هم قدوة الأمة المحمدية في النفي والاثبات، المحيز بسائر الفنون، الباحث عن كل كنز مصون، فجزى الله مؤلفه خيرا، وأجرى له من فضله أجرا، وجعل تجارته رابحة، ومساعيه لوجهه صالحة. وفرغ من طبعه على ذمة مؤلفه بالمطبعة الوهبية، ذات المحاسن الكسبية والوهبية، في جمادى الآخرة سنة 1298 من هجرة خير وسائط الدنيا والآخرة (92)».

علق العلامة الكتاني على هذا الفهرس قائلا : «والثبت المذكور مطبوع بمصر، لخصه مؤلفه في اليانع الجني وإثبات الأمير والهلالي والحضيكي، وفيه

تصحيح كثير وأوهام عديدة» (93). ولعل ما فيه من تصحيح محمول على المطبعة لا على المؤلف المشهود له بالدقة والتحقيق، وإلا فمخطوطته المكتوبة بخط المؤلف والمحفظة في الخزانة العامة خالية مما ذكره الكتاني.

ولم يشر الأستاذ العباس بن ابراهيم (94) إلى ما أشار إليه الكتاني أثناء تحليله للفهرس.

والثبت مرتب على ثلاثة عشر بابا وخاتمة، خص الباب الأول للحديث عن سبب رجوعه للقراءة بعد ما كان منه من الاباية، بغرض التذكرة لمن تعسرت عليه أموره حتى لا يصيبه اليأس ويهلكه القنوط. وخص الباب الثاني في مرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت سبب تعلقه بالعلوم، والثالث فيمن أجازته، والرابع في سند القرآن المجيد، والخامس في سند الكتب السبعة، والسادس في غير السبعة، والسابع في المسلسلات، والثامن في التفسير. والتاسع في الكلام، والعاشر في الفقه، والحادي عشر في فنون الآلة، والثاني عشر في التصوف، والثالث عشر في التلقين والاذكار، والخاتمة للطريقة الشاذلية.

ومنهج الدمنتي في هذا الثبت القيم مخالف في بعض مكوناته لمناهج الفهرسين المشاركة والمغاربة (95)، فهو معتن فيه بالروايات المتصلة والأسانيد المختلفة، دون كبير اهتمام بتراجم شيوخه وأخبارهم ومؤلفاتهم، والظروف التي لقيهم فيها... فهو في مسائل الشيوخ مجمل، وفي قضايا الروايات مفصل، ولو فصل في الجانين لكان ثبته كاملا. وأظن أن ما حمله على الاعتناء بالأسانيد أكثر من التراجم هو الفتور الذي أصاب همم العلماء في عصره إزاء الاسناد، فرام المترجم إحياء الموات.

على أن المتأمل في الفهرس المتحدث عنه، سيلاحظ أن للحديث فيه حيزا كبيرا، يفوق سعة واهتماما أحياز الفنون المروية فيه.

(93) فهرس الفهارس ج 1/176 الطبعة 2 — 1402 هـ.

(94) انظر الاعلام ج 9/255 إلى 260.

(95) كمنهج ابن غازي في فهرسه «التعليل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد». المطبوع بالبيضاء عام

1399 هـ/1979 م بتحقيق محمد الزاهي.

— ومنهج أحمد المنجور المطبوع عام 1396 هـ/1976 بالرباط بتحقيق محمد حجي.

— ومنهج محمد بن قاسم الفاسي القادري المسمى : «اتحاف أهل الدراية بمالي من الأسانيد والرواية» المطبوع بالطبعة الحجرية في آخر الأجوبة الناصرية.

فبينما يشغل فيه التفسير صفحة واحدة، يستولي الحديث على أكثر من عشرين صفحة، مما يسمح باعتباره فهرسا حديثيا، وهذا من حيث القسمة الكمية، أما من جهة المنهج والكيفية فإن البجمعي يكتفي في التفسير وغيره — سوى الحديث — بذكر الروايات وأسانيدھا إجمالا دون تعليل وتفنن. عكس ما يفعله من تهذيب وإضافة، وتحليل وتصحيح... كلما كان المروي حديثا. قال بعد أن ذكر طريقه للموطأ: «... فكان الأصل وأم الصحيحين وضعاء، ولم يتأخر عنهما رتبة، وأول كتب صنف على الأبواب، توخى به القوي من أحاديث الحجازيين، ومزجه بأثار الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وكان وضع به زهاء عشرة آلاف حديث، فلم يزل ينظر بها ويحذف ويبقي ويسقط وينفي حتى بقي به من ذلك حسبا قاله أبو بكر الابهري ألف وسبعمائة وعشرون حديثا أسند منها ستمائة وأرسل مائتين وخمسة وثمانين. وإنما ساق بها المرسل والموقوف والمنقطع والمعضل مساق المرفوع والمسند إذ كل ذلك صحيح عنده» (96).

وقال بعد أن ذكر أسانيدھ لصحيح البخاري، وترجمته منقوله من اليانع (97): «... فلو لم يكثر الناس من الثناء عليه لكفى بالثناء عليه كتابه هذا، إذ هو أول مصنف بالصحيح مجردا بلا قصد غيره، فسماه الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه وهو أصح كتاب بين أظهر المسلمين من مسلم وغيره وأكثر منه فائدة وأشد اتصالا وأتقى رجلا وكان غرضه تجريد الأحاديث المتصلة المستفيضة من غيرها، واستنباط الفقه والسير والتفسير منها...»

وختم كلامه عن صحيح البخاري بإحصائيات مدققة استقرائية لأحاديثه المسندة والمعلقة والمكررة، وبالحديث عن ثلاثياته ومميزاتها...

وكان منه مثل هذا التعليق المكمل المفيد عقب سرده لطرقه في صحيح مسلم، مشتملا على ترجمة ابن الحجاج القشيري، وتعريف بصحيحه ومنهجه فيه، ومنزلته الحديثية، مقارنة بصحيح الجعفي... إلى غير ذلك من فوائد جمعة، قلما تجدها في غير ثبت المترجم... وصنيعه هذا الحمود في الموطأ والصحيحين هو نفسه مع سائر الكتب الستة.

(96) الصفحة 17 من الفهرس، وكلامه هذا ملخص عن اليانع.

(97) الصفحة 20 من الفهرس.

2. أرجوزة في اصطلاح الحديث :

ذكرها الكتاني أثناء سرده لمؤلفاته في الحديث، قال : «... ومنظومة في اصطلاح الحديث.» (98) توجد نسخة خطية منها ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 11/د/1929 من الورقة 190 إلى 195.

3. الترغيب والترهيب في اختصار الترغيب والترهيب للحافظ المنذري :

نسبه له الكتاني في فهرس الفهارس، ووصفه بأنه مجلد ضخيم، ونقل الأستاذ أحمد التوفيق عن العلامة المنوني أن مخطوطة من هذا الكتاب موجودة بخط المؤلف بخزانة تمكروت تحت رقم : 9030.

4. درجات مراقبة الصعود إلى سنن أبي داود :

وهو حاشية على تعليق لجلال الدين السيوطي على سنن أبي داود طبع بمصر سنة ألف ومائتين وثمان وتسعين. هـ. وقد أشار الدمنتي إلى هذا المؤلف في خاتمة حاشيته على صحيح مسلم قال : «... قد تم بحمد الله وعونه ما حرر على صحيح مسلم (...) ويليها حاشية سنن أبي داود يسر الله ختامها» (99).

5. روح التوشيح على صحيح البخاري :

ألف الامام جلال الدين السيوطي تعليقا على جامع محمد بن اسماعيل البخاري عنوانه بالتوشيح على صحيح البخاري، جاء في أوله (100) : «... هذا تعليق على صحيح الأستاذ شيخ الاسلام أمير المؤمنين أبي عبد الله البخاري المسمى التوشيح، يجري مجرى تعليق بدر الدين الزركشي المسمى بالتنقيح، يشتمل على ما يحتاج إليه القارئ والمستمع من ضبط ألفاظه، وتفسير غريبه، وبيان اختلاف رواياته، وزيادة خبر لم يرد في طريقه، وتسمية مبهم وإعراب مشكل..»

فعمد العلامة الدمنتي إلى اختصار هذا التعليق في مؤلف سماه : «روح التوشيح على صحيح البخاري» (101) سار فيه على نهج الأصل، معتمدا على

(98) فهرس الفهارس ج 1 176 الطبعة 2 — 1402.

(99) وشي الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج. الصفحة 284 المطبعة الوهية بمصر عام 1298 هـ.

(100) نقلا عن الأستاذ أحمد الشقراوي إقبال في كتابه : مكتبة الجلال السيوطي ص 214.

(101) الكتاب مطبوع بالمطبعة الوهية بمصر عام 1298 هـ في 374 ص. وقد أخطأ الأستاذ أحمد التوفيق حين ذكر في دراسته لرسالة الدمنتي أن عدد صفحات هذا الكتاب 238 ص.

الايجاز والتثبت في نقل الأقوال وعزوها إلى أصحابها، وقد بين الدمتمني في أول هذا الكتاب أن قصده فيه اختصار موجز لمصنف السيوطي قال : «أما بعد فيقول الحقيقير الكسير علي بن سليمان الدمتمني البجمعوي الفقير إلى الله، الراجي من الرحمن له ولكل موحد الغفران، وإن لم نف بالشكران (...) لما رأيت من بحرهُ تفجّر، الامام الحافظ ابن حجر، علق على السبع تعليقات فأخذ من بإذن ربه يعطي، الجلال السيوطي، ريدها بالشروح بتعليقات، فاستخرته تعالى في اختصارها موجزة» (102).

طبع الكتاب بمصر سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف في مجلد واحد بـ 374 صفحة. وبالنظر فيه تدرى قيمته، منهج دقيق، وتثبت في النقل والضبط والترجيح، وإن كان الغرض من الكتاب لا يسمح للدمتمني بالاسهاب في مسائله وقضاياها. سار الكتاب مسرى الريح في المشارق والمغرب (103)، فاكسب شهرة واسعة رفعت من قيمة صاحبه ومنزلته الحديثية.

6. لسان المحدث في أحسن ما به يحدث :

نسبه لنفسه في مقدمة الروح فقال : «... وألفت لسان المحدث في أحسن ما به يحدث» (104). وصفه الكتاني بأنه ضخّم في مجلدين، جمع فيه مواد النهاية والقاموس، وتوجد نسخة مخطوطة منه في تمكروت تحت رقم 1289.

7. نفع قوت المغتذي على جامع الترمذي :

ذكر الأستاذ أحمد التوفيق (105) أنه شرح لجامع الترمذي في الحديث، والحال أنه حاشية فقط على شرح لجلال الدين السيوطي على مؤلف الترمذي المسمى : «قوت المغتذي على جامع الترمذي». طبع الكتاب بمصر سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف، في مائة وستة وخمسين صفحة، وحجمه هذا أكبر دليل على أنه مجرد حاشية موجزة، لا شرح كامل لجامع الترمذي المستلزم لحجم ضخّم.

(102) روح التوشيح ص 2.

(103) ذكره اسماعيل باشا البغدادي في كتابيه : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون. وهدية العارفين في أسماء المؤلفين. الأول في الصفحة 585 من ج 1 والثاني في ص 756 ج 1.

(104) روح التوشيح على الجامع الصحيح. الصفحة 2.

(105) النهضة والتراث الصفحة 265.

8. نور مصباح الزجاجاة، على سنن ابن ماجة :

وهو أيضا حاشية على مؤلف لجلال الدين السيوطي : «مصباح الزجاجاة على سنن ابن ماجة». طبع بمصر عام تسعة وتسعين ومائتين وألف.

9. وشي الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج :

وهو حاشية على تعليق للإمام السيوطي على صحيح مسلم المسمى : «الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج» وهو كتاب ألفه السيوطي على غرار «التوشيح في مشكلات الجامع الصحيح»، جاء في أوله : «وبعد. فلما من الله تعالى، وله الفضل بإكمال ما قصده من التعليق على صحيح البخاري رضي الله عنه المسمى بالتوشيح، وجهت الوجهة إلى تعليق مثله على صحيح الامام مسلم بن الحجاج مسمى بالديباج» (106).

فعمد العلامة الدمتمني إلى وضع حاشية على هذا التعليق على شكل اختصار موجز، فكان له ذلك، فجاء الكتاب مختصرا في مائتين وأربعة وثمانين وصفيحة، جاء في أوله : «... وبعد : فإن الكسير الدمتمني البجمعوي علي بن سليمان الراجي من الله الرحمن، له ولكل المؤمنين عموم الغفران. قال : لما من عليه المنان بإكمال اختصار التوشيح المسمى بروح التوشيح على الصحيح، وجهه إلى اختصار تعليق مثله للجلال السيوطي أيضا على صحيح الامام أبي الحسين مسلم بن الحجاج رضي الله عنه تعالى مسمى بالديباج على صحيح مسلم بن الحجاج فسميته «وشي الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج» (107).

سلك فيه الدمتمني مسلكه في الروح، ضبطا وشرحا واتقاناً وثبتاً، مما أعطى للمؤلف قيمة حديثة عرفها له أهل الجهة والشأن.

ملاحظات عن مؤلفات الدمتمني الحديثة :

1. كل حواشيه على تعليقات جلال الدين السيوطي على الكتب الستة مطبوعة على نفقته الخاصة بالمطبعة الوهبية بمصر في نفس السنة تقريبا.
2. تقع هذه الحواشي كلها في أحجام متوسطة، في أجزاء منفردة، متميزة باختصار شديد مع الاتيان بالمقصود، مما يدل على تمرسه وخبرته في مجال التأليف.

(106) نقلا عن أحمد الشراوي اقبال في «مكتبة الجلال السيوطي» الصفحة 195.

(107) الصفحة 2.

3. نالت هذه المؤلفات شهرة عالمية بلغ صيتها المشارق والمغرب، تجد لها ذكرا في المؤلفات المشرقية المتخصصة في إحصاء ما ألف في الثقافة الإسلامية شرقا وغربا.

4. كان المؤلف يوزع هذه الحواشي على أهل الحجة مجانا، اسهاما منه في تنشيط الدراسات الحديثة في المغرب، بادرة لم تحفظ لغيره من المؤلفين.

5. تركيزه على طبع كتب السنة دون غيرها من سائر مؤلفاته، يسمح بالحكم عليه «بالسنية» والميل نحو البحوث الحديثة.

6. هذه الحواشي نادرة جدا، وندرتها — في نظري — طبيعية على مقتضى المعقول إذ لم تطبع إلا مرة واحدة في نسخ جد محدودة،، حسبما تسمح به قدراته المادية، وفي بلد خارج المغرب مما جعلها — على قلتها — موزعة في أقطار إسلامية كثيرة، وحتى المدخول منها إلى المغرب موزع على الأعيان، لا على الهيئات والجمعيات، مما صير العثور عليها في المكتبات العامة متعذرا.

خاتمة :

لقد حظيت الدراسات الحديثة بالمغرب عبر الأحقاب الإسلامية باهتمام بالغ من قبل أئمة هذا البلد وأعلامه، وما خلفوه من تراث عظيم في هذا المجال شاهد على صدق المقول. إلا أن محدثنا العلامة علي بن سليمان يكاد يتميز عن أغلب المحدثين المغاربة بجملة من المميزات بدت لي أثناء الكشف والموازنة، منها :

1. الجمع بين سعة الرواية وعمق الدراية.
2. الجمع بين الحفظ والممارسة، سلوكه على مقتضى الحديث، وحركاته وسكناته وفق السنة.
3. الانحياز الكلي لخدمة الدراسات الحديثة تدريسا وتصنيفا.
4. تعميم الوعي الحديثي بين الدارسين عن طريق طبع مؤلفاته بماله الخاص وتوزيعها عليهم بالمجان، وهو ما لم يحفظ لغيره.
5. شدة التعلق بقضايا الاسناد ومسائل التوثيق.
6. شدة التركيز في التدريس والتأليف على الأهم، وترك ما سواه تقديرا لقيمة الزمن.

... هذا إلى كونه متأسيا بالسلف الصالح، تجري عليه أحوالهم، وتنسحب عليه أوصافهم، ذلك ما صيره ظاهرة علمية رمزية في عصره تستحق الدراسة المعمقة من سائر جهاتها، وما قامت به هذه الأوراق ليس إلا نقلا للإمام من حال النكرة الشائعة إلى حال النكرة المقصودة، في انتظار أن ينقل ثانية إلى حال التعريف. ثم إلى أعلى مستويات هذا التعريف.

على أن ذلك لن يتم إلا بدراسة تواليفه وتحقيقها ونشرها، فبها وحدها تدرى القيمة الحقيقية لمرجعنا، وإن كان القاريء لهذا البحث سيخرج منه بصورة تقريبية للعلامة علي بن سليمان، وبالجهود المضنية التي بذلها هذا العالم في سبيل خدمة المعرفة بصفة عامة، والحديثية منها بصفة خاصة. وهذا هو الهدف العام لهذه المذكرة.

ملحق

رسالة علي بن سليمان الدمناتي صهر الأستاذ أبي بكر الناصري لعلماء
الآفاق ومشايخهم وملوكهم ليؤلفوا في عدم تفضيل مذهب أو طريق
براحة علماء فاس ومكنسة وما والاهما، خصوصا من رجئت ولايته أو ادعيت
تصريحا منه أو من أصحابه، غفر الله لنا ولكل موحد

بسم الله الرحمن الرحيم.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي جعل معرفته ومعرفة حبيبه صلى الله عليه وسلم دليلا على
معرفة الأولياء إذ لا يرضخ منها للأطغياء. والصلاة والسلام على سيدنا محمد نور
الأصفياء، وعلى آل وأصحاب وأتباع سيدنا محمد إمام الأنبياء، بتعاقب كل ما
تعاقب على الإيجاد والاعدام. اللهم قدرتك وإرادتك. أما بعد فمن صهر الناصري
البحر. الغوث النير البدر. ملك الظاهر والباطن. سيد الظاعن والقاطن. الأستاذ
مولانا أبي بكر، أعني بالصهر الفقير علي بن سليمان الدمناتي البجمعوي عبيدك
اللهم اغفر له ولكل موحد خصوصا أمته صلى الله عليه وسلم.

إلى يعاسيب الانام بهذا الدهر. كعوب ينايب الأمر. رمة الابنية الواهية.
علماء وملوك الأرض الاسلامية وأئمة الاسلام. وأنوف وأزمة الانام أيا قروءا منها.
أعم سلام الله بأتم روادفه وأعمها. يعم الأحوال كلها. بالنصر والظفر. ضد كل
من جاور أحدكم من الأعداء وأهل الكفر.

هذا وإن المذاهب الأربعة وطرق الأولياء التي لا تحصى أنواعها كثرة
كالشاذلية، كل أهل طريق وأهل مذهب يزعمون أنهم الأهل بالأفضلية والأولى
بالتقديم على من خالفهم وبإينهم. فكثرت بذلك دعاواهم، وانتشرت به فتاويهم،
قدما وحادثا، فلم يدر لأجل ذلك التهاثر والتهارج من كان محقا أو عابثا، إذ
تلوث ظواهر المقتدى بهم المزعوم بتقديمهم بالبدايع كالأدخنة شرابا، والشم وغير
ذلك مما يكون لمرايا القلوب سوادا وسرابا. ففترقت بذلك الأقوال، وتمزقت هنالك

الأحوال، حتى إنه يقع من فقهاء تلك المذاهب والطرق التساب بعضهم لبعض، إذ كل استند إلى إشارات بديّة وتلويحات خفية، فتطاولت علماء كل ينتصرون لما هم عليه بالنقول. حتى إني رأيت ببعض الكتب أن فلانا نسب اسمه ألف بمناقب مالك وأفضلية مذهبه مائة سفر وفرقه بعض الشافعية غيرة على مذهبه فكان عاقبة هذا البعض أن غرق بالفرات جزاء منه تعالى لفعله. فضلت عن الوصول العقول. إذ تصدت برزايا الخطايا. فخلأت دون المراد المطايا، فحرنا في الرشد. وأدركنا عن القصد. فطال جولاننا عن هذا المعنى. فلم ينتج لنا إلا العنا مع اتفاق أهل الحق على حقية كل المذاهب الأربعة. وحقية كل طرق الأولياء ما لم يظهر بها الابتداع. وسوء الاتباع لسيد الاشفاق صلى الله عليه وآله وسلم.

فيا الله تعالى ثم يا لرسول الله صلى الله عليك وآلك وسلم، ثم يا لأولياء الله تعالى رضي الله عنكم، ثم يا للعلماء لا زلتم دواء، ثم يا للملوك نصرمكم الله وأصلحكم ووقفنا جميعا وإياكم لكمال الامثال والاجتناب. وأعاننا عليه إذ أنتم بالأرض قادة الله وظلاله. وقوام الحق عند انتباده وجلاله. لاستخراج هذه الحكمة إذ ضلت. فيجب على كل حكيم البحث عنها إلى استبيان أينما ولت. فيحوزها جلت كانت أو قلت. إذ طلبها دأبه، وإلا نزل مذهبه.

فنبغي من الله ثم منكم أن تنصبوا لها هذه الحباله. وتستدلوا عنها بهذه الأدلة. لعل أن يتعين لنا نحوها. ويتبين لنا جوها. فتميل لها ان رغبوها. وتلك الحباله أن ينبعث كل عالم، أو يبعثه ملك بلده مع انبعاث أهل الهمم الصافية. ممن ادعيت ولايته. تصرّحاً منه أو من أصحابه. أو اعتقاداً بلا تصرّح. أن يؤلف كل واحد غاية ما عنده من المعارف الأحدية. والعوارف الأحمدية. بلا إطلاق في متاني المعاني. ولا إغراق في حقيقة كتأليف الامام الحاتمي كالفتوحات، والامام الجيلي كالانسان الكامل، ولا إطلاق كتأليف حجة الاسلام أبي حامد بنحو الإحياء رضي الله عنا جميع الموحدين. ولا وقوف على ظواهر العلوم الرسمية. بل يقتصد بينهما بلا تفريط ولا إفراط بكل مع سوق أوعية المعاني في أسلوب مرقق، وتأليف مدقق، وتبويب محقق. وتفصيل وتحصيل موفق. بلا اشتغال بما عليه مذاهب أهل الكلام والجدل. بل ذلك كله بسلك ما عليه العارفون وجرى به عندهم العمل. من النزاع أي كتابية. وحكم سنية. إلا ما قل منها إن دعت له الضرورة. وحاصله كما مر أن يكون في أسلوب عجيب. وترتيب غريب. يشهد غير أسباب الأعناف والاتلاف. بل أرباب الانصاف والالطاف أنه لم يسبق لنحو هذا

السياق. وإنه منة امتنها تعالى على من أبدأها على يديه بلا حول وصادق فأفاد المؤلف وابتدع. وجاد بالمعروف واصطنع. بيد أنه لا محيص له عن نهج السلف إلا في إجادة التقرير. وإفادة التحرير. وحسن بيان التصرف عند أهل التصوف والتعرف. وإن حار في البیداء. أو في الحفر أكدى. وجب الاقرار بالعجز والتوقف.

وأول ما يجب على كل عالم سرح جناحه ببساتين هذه المعارف المذكورة أن يخلص عمله له تعالى، قاصدا بذلك بيان الحق لعباده تعالى ليكونوا أكمل البصائر في جماله تعالى وجلاله. وكإل حبيبه صلى الله عليه وسلم وتمام فعاله. دون قصد المباهاة بكلامه على تقدير أحسنية نظامه. مع كونه لا يدري عاقبته بمقابلته لتصانيف علماء الدين. بل هو بالعدوة الدنيا أو بالقصوى، فيكون له أجران إن أصاب، وأجر إن لم يصب. إذ هو مجتهد في أعظم منافع الاسلام، وإلا خسر الدنيا والأخرى. بالخالين إن كانت الأخرى. برينا تعالى عدنا. بكل عدله في الدارين إنه عفو غفور.

ومن ليس بأهل للكتابة ممن أدعيت ولايته فليمل على غيره وليكتب ذلك الغير غاية ما عند هذا الولي الأمي. وليأمر كل ملك الموصوف بما ذكر من رعيته أن يجد كل الجد في تحصيل ما وصف. وبعد تحصيل كل ما عنده فليجتمع أهل كل مذهب من المذاهب الأربعة على حدة بحيث لا يدري أهل كل مذهب بسيرة غيرهم فينتهجها ويدعيها لنفسه كفرانا للنعمة لكن يكون اجتماع كل بلا اعناف بل بالطاف وإنصاف. فيصفحوا كل ما جمعوا من أعلامهم إلى أن يتفقوا على أن التأليف المستوفي للشروط المذكورة الأولى أن يوجه لحضرة أعلام المذاهب تأليف فلان، وإن لم يتفق تأليف مستقل من فرد بالمذهب ضم كلام أعلامه بعضه لبعض إلى أن يحصل ما به الكفاية. ومن استقل تأليفه بالمعرفتين واستحسن شيئا من تأليف غيره إذ يوجد بالنهر ما لا بالبحر. وبالقفز ما لا بالقصر. فلا بأس أن يلحقه بمظانه بشرط عزوه لما نقل منه.

والمراد بهذا كله أن تنتج لنا هذه الحباله من أعلام الدين أربعة تأليف : تأليف أعلام الحنفية. وآخر من أعلام الحنابلة. وآخر من أعلام الشافعية. وآخر من أعلام المالكية. ولا غرو أن الطرق وإن تكاثرت لا تخرج عن المذاهب الأربعة، وما خرج عنها نبذناه.

فإن اتفق أعلام كل مذهب على ما ذكر بعثوه مع أعلمهم إلى حضرة من الحضرات، كأحد الحرمين الشريفين أو مصر. ونفقة كل عالم اشتغل بإبراز هذه

الضالة على من في ولايته من الملوك. إذ غالب أحوال العلماء الفقر. وإن تهيأوا. لأن الحالين : العلم والفقر ورثوهما عن موروثهم النبي (ﷺ). إذ ربما أشغل من توجه لذلك وإن متوكلا معاش أولاده عن تحصيل ما ذكر. فنبهنا الملوك عن ذلك لينتبهوا.

وحيث اجتمع هؤلاء الأعلام من كل المذاهب على ما تحصل يكون اجتماعهم بإنصاف لا باعفاف كما مر. فإن صفحوا التأليف الأربعة المحصلة بهذه الحباله حق لهم أن يقولوا حمدا لله وشكرا، وقد أفلح اليوم من استعلى. إذ هم بهذا السياق لهذه الغاية بمرضاة الحق. لا فخرا وبطرا كسحرة فرعون إذ هم بمرضاة أسوأ الخلق. وأيضا قالوها بطرا ومرحا بمعرفة الشر والسحر. ونحن قلناها سرورا وفرحا بمعرفة رب العالمين تعالى. وإمام الخير والشكر صلى الله عليه وآله وسلم. فصار بين الغايتين بون أعظم مما بين الضب ونون. فبعد تصفيحهم ما ذكر من الأربع فما اتفقوا إنه المستوفي للشروط الأولى بالائتمام والتقديم فأى مذهب أو طريق استنشقنا منه رائحة هذا الزهر، وزرغ من نحوه هذا البدر. وتشخص من أفقه هذا الصدر. حكمنا له بالأفضلية على ما سواه إنصافا بالحال والمقال. إذ الحق أحق أن يقال. والمجادل بالحق يحق عليه الدوران إليه أينما اتفق. وحكمنا أن إمام هذا المذهب إمام الأئمة. وأن إمام ذلك الطريق كالشاذلية، وأي نوع من أنواعها كالناصرى بالمغرب هو أفضل وأكمل الهمة مع كمال الاعتقاد أن الكل اشتركوا بالفضل وحكمنا بإلقائنا إلى أولوية مذهبه وطريقه السلاح. وبذلنا في الرحيل للاستفادة واقتباس أنواره الأنفس والأرواح. كان بالمشارك أو بالمغرب. وبالشمال أو الجنائب. إذ هذه الفريدة العظمى، واليتيمة المثلى، البازغة جناب هذا العالم. كرامة له بنفسه أنه أصح الاعتقاد بإمامة شريعة وإمامة حقيقة وكرامة الإمامية أنهما أصح الاقتداء بنور المشرقين والمغربين وإمام الدارين والمكانين. صلى الله عليه وآله وسلم. ومعجزة له صلى الله عليه وآله وسلم. خارقة الستور. إذ هي بآخر الأعصار والدهور فصارت بهذا كرامة لأهل الاسلام طرا، خصوصا أوليائه وعلماءه جهرا. وملوكه وصلحاءه سرا. فيجب بها على المنصف منهم الناصح المقتدي بالسلف الصالح، سوق نفسه وأحبته إليه. والذوق مما أودع الله لديه. واستنشاق ريح ما أظهر الله عليه. قرت نفسه لذلك. أوفرت، وقليل ما هم. إذ المعرفتان الظاهرتان من نهاء، هما تطلب مدار فلك الاسلام بمذاهبه كلها. لا يختص بهما أحد المذاهب أو أحد الطرق دون غيرهم. فيخص الفحص عليهما، والفخر بهذا العالم الطالعتان من خلده مذهبا دون غيره. بل هو منه على كل مومن

بعضه، فما بعد إلى انقراضهم بالريح من أي مذهب وأي طريق كان. إذ المعرفتان كل فرد ذكره وغيره من أهل الاسلام بغاية الظمأ منهما، وإن بلغ ما بلغ. بل بالتفاوت بهما تتفاوت الدرجات دنيا وأخرى. فوجب الفحص والسوق المذكوران على الكل، وحصل الفخر للكل عاميا كان أو خاصيا والحمد لله رب العالمين. وأيضا نصب الحباله المذكورة يشبه التحدي، وحصول هذه الضالة شبه المعجزة، والسوق المذكور مقتضى المعجزة. فوجب الانصاف دون الاعناف. إذ الأفضلية المدعاة لما عدا مذهبه وطريقه بطلت دعاويها، وتعطلت فتاويها، لكشف الغيب على ما أضمر، وما علينا قد استتر. فما الدعوى بعد إلا الضلال، وما الفتوى إثر ما ذكر إلا الخبال، والخير كله لا محالة بالائتلاف والانصاف، والشر كله بالخلاف والاعناف، والله تعالى نسأل كل المرضاة. فهو الرب اللطيف العفو الرؤوف، بيده تعالى كل شيء.

وليس الباعث مؤلف السؤال المزبور اسمه بصدره كونه شاكا أو جاهلا لكلتا المعرفتين أو إحداهما، أو أن تجتمع المذاهب الأربعة أو الطرق الكثيرة فتصير واحدة بانتقال كل إلى المذهب أو الطريق الذي ذلك العالم منها. كيف مع قوله تعالى : ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أو يصير ظهور ذلك العالم العارف بأي مذهب أو طريق قطعي الأفضلية كمقتضى المشبه به المعجزة بحيث لا يجوز ترجيح المقلد مقلدة كما ذلك هو المشروع. إذ كل هذا شبه المحال الممنوع بل باعته عليه أن يظهر له من يأخذ عنه المستوفي للشروط التي زبرها أهل العلم بكتبهم، إذ اشتبه عليه أهل الوقت بكثرة البدائع كما سمعت أولا، فإن ظهر بشرطه أخذنا عنه بأي طريق وأي مذهب كان مع اختيارنا في الانتقال لمذهبه أو طريقه.

فيا حبذا هذه الحباله إذا ميزت لنا أشياء منها المعرفتان اللتان هما ضالة كمال الايمان من أهل كل المذاهب الأربعة بطرقهم الكثيرة وشمس الكل وغرضهم، وشفاء الكل من مرضهم، وما هو أعلى من كل غرضهم القائل تعالى بنحوها : ﴿مثل هذا فيلعمل العاملون﴾. بل هما قلوب الأنبياء ولباس الأولياء وتاج الملوك العارفين، وحرمان الشياطين وحزهم الأطغياء، وأفضلية المذهب بالشريعة وأفضليته بالحقيقة، والعالم المنبغي الاقتداء بأقواله وأفعاله فيها، وفي أحواله بالطريقة، إذ به يتباهى المقر بالعصر والصدّر بالأزر، وخصوصا ملوك العصر، وأولاهم به بعد العموم من أبداه تعالى بالمقر. إذ شأن الملوك الفخر، وأهداهم بأن له على الفخر الأجر، من نوى به لله تعالى الشكر على تفجير قواميس هاتين المعرفتين في زمانه من هذا الينبوع، ببركة نير الدارين الذي هو بهما سيد الكل والامام المتبوع (عليه السلام).

ولهذا فبالله تعالى نسأل كل الموحدين أن يولي من أعان على نصبها وطرد الصيد إليها من الملوك وكل من له التصدير نحو الوزراء وولاية القضاء غاية درجات الأجر. ويحط عنه كل ما اقترفه من الوزر. إنه تعالى ذو العفو والحمد والجود والشكر.

وانتخبنا المعرفتين المذكورتين محبة في استيقاع الصيد بها. إذ ما سواها من الخوارق كالطيران والمشى على الماء والهواء والطبي والصبر على الجوع نحو الشهرين وإحياء الموتى يشترك فيه مع أهل الحباله بعض أهل الضلالة من الجن كالشيطان الأغوى، والإنس كالذجال الأهوى. إذ كلاهما أوتي نحو ما ذكر من الخوارق وأغرب، قضاء منه تعالى لمрад أرواده بخلقها، سبحانه ما لحكمه من معقب.

ولم نجعلها أيضا نصر الدين بتأليف ظواهر الرسوم إذ جاء عنه (عليه السلام) أنه قال أو كما قال : أخوف ما أخاف على أمتي عالم اللسان. وقد بلغني عن بعض من له مخالطة بالنصارى ما يصدق قوله (عليه السلام) أنه رأى كتباً بأيديهم معربة مشحونة بقوانين المعقول منطقاً وغيره كالأصول يحتجون بها في تلك الكتب على صحة دين النصارى مع نص الكتاب والسنة على فساده وإجماع أهل الحق على ذلك. بل مفسد الدين كلها ما وقع أكثرها إلا من علماء اللسان والبيان، لا من علماء الجنان والعرفان. ولا جعلناها قهر الكفرة قولاً وفعلاً لما ذكر. إذ صح أنه تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر. فتعسر تمييز أهل الجلالة بنحو ما ذكر لأخذ حقه منه المحصل الحق والمبطل الممحق بخلاف المعرفتين المذكورتين فإنه تعالى خص بهما الأولياء دون الأغوياء. إذ كل ما ذكر غيرهما لا يعبأ به في كمال الإيمان بلا انضمام المعرفتين إليه. بخلاف خصوصها فإنه كاف بلا ضميمه شيء من ذلك. إذ هما الابريز، والكنز العزيز، والدر المصون، والاكسير المتين، بل هما الأمر المرغوب، والسر المرهوب، فكان معيارهما أبين ومقدارهما أزين.

والجواب أنتظره اثر مضي أربع سنين من ألف ومائتين واثنين وثمانين إن شاء الله تعالى. إذ بالسنة يصل الخبر للبلاد. والستين التأليف. وسنة لمقابلة أهل كل بلد مما جمع علماءهم وأهل الولاية الباطنة، وبالخامسة الحضور إن شاء الله تعالى.

لكن لا يتوهم متوهم أنني أريد جواب إشارة موجزا. بل جواب إفادة مطنبا معجزا، أقله عشرون كراسا. إذ ذاك أقل ما تنشرح به المعرفتان انشراحا شافيا، وتتضحان به اتضاحا كافيا. وإلا فهو مرقوص الرقبة دون وصول أول العقبة.

خاتمة، هذا شرط الجواب بحسب المشرق والمغرب، ويزاد في جواب أهل المغرب أن يكون من أوله إلى آخره مضمنا موضحا. بل بالتأمل مبينا مصرحا بمدح أمير المؤمنين السلطان نجل السلطان إلى هلم جرا. وسر حربه الصادقين. السالك ملكنا المؤيد، اكسير الموقنين، البرهان، عزل الشيطان، على من أم كفرا، وضد حربه المارقين، ذلك سيدنا محمد. لا زال لكل الفضل نحو السلطنة أهلا، وعن كل العدل نحو الشيطانة عزلا.

ولا جرم أن نحو هذه الخاتمة عند المدعين مما يستغرب فيستكرب. وعند المستمعين مما يستقرب فيستعرب. ولخصوصها بأهل المغرب لم نكتبها بالنسخ التي فرقها لأقطار المشرق. انتهى وكفى. وسلام على عباده الذين اصطفى. والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه ما مر القدر على كل من بر وفجر، وبكل أحوال الدنيا والآخرة ربنا المستعان. وعليه التكلان.

فهرس مصادر البحث

أعراب سعيد :

— القراء والقراءات بالمغرب. ط 1 بيروت 1410 هـ/1990 م

البغدادى اسماعيل باشا :

— هدية العارفين — طبعة استمبول — 1951

— إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون. مكتبة المثنى بغداد.

داود محمد :

— تاريخ تطوان. ط. تطوان 1959 م

الدمتي علي بن سليمان :

— أجلى مساند على الرحمن في أعلى أسانيد علي بن سليمان. المطبعة الوهية

بمصر 1298 هـ.

— روح التوشيح على الجامع الصحيح. المطبعة الوهية بمصر 1298 هـ.

— وشي الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج. المطبعة الوهية بمصر

1298 هـ.

ابن زيدان عبد الرحمان :

— اتخاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس.

الطبعة الأولى — الرباط السنة 1349 هـ/1930.

ابن سودة عبد السلام :

— دليل مؤرخ المغرب. طبعة تطوان 1369 هـ.

سركيس يوسف :

— معجم المطبوعات العربية والمعرية. ط : مصر 1336 هـ.

السوسي محمد المختار :

—المعسول — مطبعة النجاح. الدار البيضاء 1382 هـ/1963 م.

ابن غازي محمد :

—التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد.

طبعة الدار البيضاء 1399 هـ/1979 م.

الفاسي عبد الحفيظ :

—مُعجم الشيوخ المسمى رياض الجنة والمدهش المطرب.

الطبعة 1 المطبعة الوطنية الرباط — 1350 هـ/1931 م.

الكتاني عبد الحفيظ :

—فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات.

الطبعة 2 — السنة 1402 هـ.

الكتاني محمد جعفر :

—الرسالة المستطرفة — الطبعة 1. دار الكتب العلمية بيروت 1332 هـ.

كحالة عمر رضا :

—معجم المؤلفين — مكتبة المثنى بيروت. 1378 هـ/1959 م.

المنوفي محمد :

—المصادر العربية لتاريخ المغرب — مطبعة فضالة 1410 هـ/1989 م.

—دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت.

مطبعة فضالة 1405 هـ/1985 م.

المنجور أحمد :

—فهرسه. طبع بالرباط بتحقيق محمد حجي 1396 هـ/1976 م.

المقري أحمد بن محمد :

—أزهار الرياض في أخبار عياض.

اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي 1400 هـ/1980 م.

المراكشي العباسي بن ابراهيم :

— الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام — المطبعة الملكية بالرباط
1974.

ابن الموقت :

— السعادة الأبدية. الطبعة الحجرية.

محمد بن قاسم الحسني :

— اتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية. المطبعة الحجرية. 1320 هـ.

الناصرى أحمد بن خالد :

— الاستقصا. ط. دار الكتاب. البيضاء 1954.

— طلعة المشتري في النسب الجعفري. الطبعة الحجرية.

